
كتابي
١٢ قرشا
حلمى مراد
رأيت وسمعت لك
فى اسطنبول!

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

الكتاب الخامس والثمانون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والاعداد السابقة : التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة)
تليفون : ٥٩٥٥٦

صورة الغلاف

الى ما قبل سنوات قليلة ، كانت اسطنبول مدينة من أبهج مدن العالم .. كانت الجماهير المتزاحمة فى الاسواق ، وامام المساجد ، وعلى قنطرة (جالاتا) ، تموج بألوان الثياب الشرقية الرائعة التطريز .. لكن هذه الازياء بألوانها الزاهية تقل وتزداد ندرة يوما بعد يوم ، بحكم مقاييس الحياة العصرية .

محتويات الكتاب

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن أربعة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد ، فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها سبعة وأربعون كتابا (ومجلدان كبيران خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

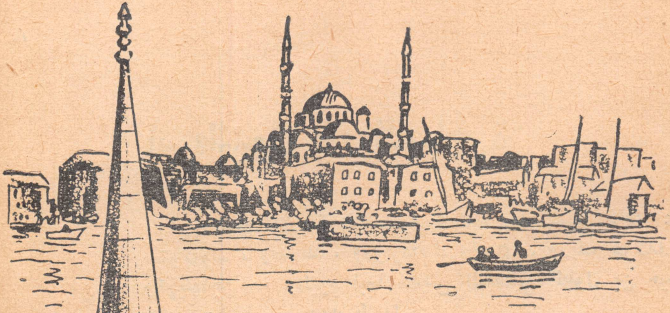
الاشتراكات

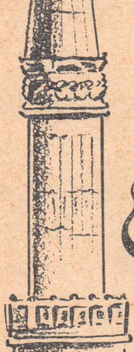
◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

◆ الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى مصر والسودان والمملكة السعودية وسوريا والأردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

◆ ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان إن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

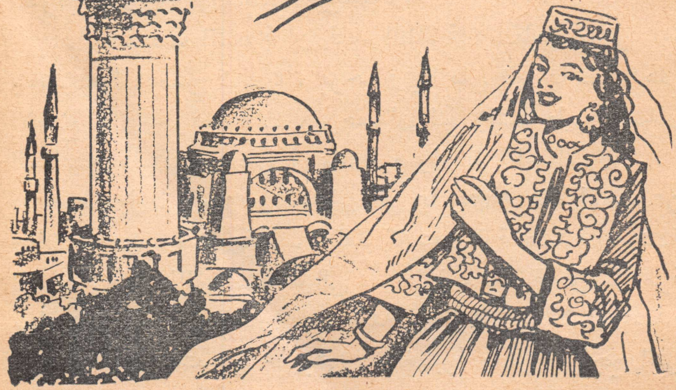




رأيت وسمعت لك

في اسطنبول

للمحرر



اسطنبول .. الساحرة

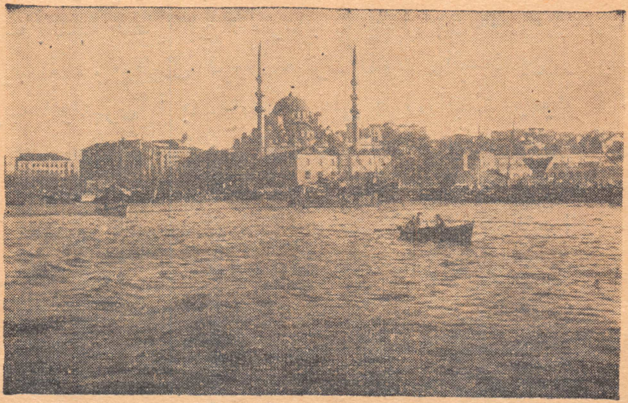
فى الاعداد الاربعة الماضيــة حدثتك حديثـــا خاطفا عن ستوكهولم ، ومدريد ، وروتردام ، ولاهاى ، وريف هولندا ، وكوبنهاجن .. واليوم أبدأ حديثى التفصيلى المطول من حيث بدأت جولتى .. من اسطنبول :

• **الساعة** قبيل العاشرة مساء ، والطائرة منطلقة نحـو (اسطنبول) بسرعة ٥٥٥ كيلومتـرا (٣٤٥ ميـلا) ، على ارتفاع ٢٢٥٠٠ قدم .. (وان يكن الضغط « المكيف » فى الداخل مخفضا الى الدرجة التى تناسب ارتفاع خمسة آلاف قدم فقط) .. والطقس جميل ، يبشر برحلة « ناعمة » ، على حد تعبير النـشرة التى وزعت على الركاب . ودرجة الحرارة فى الخارج ٢١ مئـوية ، فقـد كنا فى ليلة ٥ ـ ٦ أكتوبر ، أى فى أواسط الخريف ..

.. واضافت النشرة ان قائد الطائرة « الكابتن بيللى » ، ومضيفتها « مس كوك » ، يرحبان بنا على ظهرها ـ او على الاصح « فى جوفها » ـ ويرجـوان لنا وقتـا طيبا خـلال الساعتين الباقيتين على موعد الوصول الى اسطنبول ..

اسطنبول ! .. وشرد ذهنى الى ما يحمله هذا الاسم من معان ، ومن .. تاريخ ! .. لقد كانت زيارة هـذه المدينـة العريقة حلما طالما داعب خيالى ، وحاولت تحقيقه فى كل مرة سافرت فيها الى الخارج .. لكنه لم ييسر لى الا فى هـذه المرة . واخرجت من حقيبتى الصغـيرة بعض المراجع التى

حملتها معى عن اسطنبول ، فى ماضيها وحاضرها .. هـذا فصل كتبه « لويس جيلينسون » بعنوان : « قدم ..فى كل قرن » ، يزيدنى شوقا الى الوصول ، اذ يقول ـ ويؤكد ـ **ان اسطنبول من أكثر مدن العالم سحرا ، فعلى مياه البوسفور المزدحمة بالحياة ، المتلألئة بالاضواء البراقة ، تنعكس ظلال المنائر الشاهقة للمساجد الخيالية ، وقباب الكنائس القديمة**



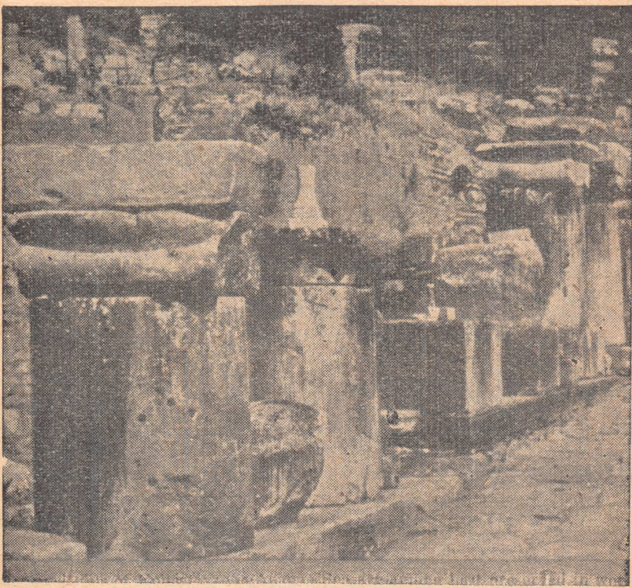
مسجد « أيا صوفيا » كما يبدو من سفينة تعبر البوسفور ..!

.. وان قصور اسطنبول المشهورة بالبذخ والترف، ومعالمها الاثرية العريقة ، قد منحتها لقب عاصمة الشرق « الادنى »، منذ انتزعها الاتراك من البيزنطيين عام ١٤٥٤ .. ولكن حول هذه الصروح المتخلفة من الماضى،تدور عجلة حضارة ناهضة

متعجلة .. فان سكانها البالغ عددهم مليونا ونصف مليون، لا ينفكون يتضاعفون .. والعمائر والمبانى المخصصة للمكاتب والاعمال والشركات ، تشيد بسرعة كبيرة .. والنوادى الليلية تزداد كل يوم ضجيجا .. **ورغم ان الشوارع تزداد اتساعا، فان الزحام يتكاثف بسرعة أكبر ، وحركة السيارات – الجديرة بأية عاصمة صاخبة – تكاد تغدو .. مستحيلة !.**

« .. ان تركيا – بمصادفة « جغرافية » محضة – قد صارت بمثابة قنطرة أو « سرداب » يصل بين عالمين : الشرق والغرب ! .. وطوال قرون ، ترك الملوك والسلاطين وأمراء الحرب الوثنيون « بصماتهم » على طول البلاد وعرضها ، وهم يجتاحون أرضها ، فى غزواتهم للحضارات . وبقيت من تلك العصور أرض تحمل قسمات وجهها طابع الشرق وسماته، بينما تستحم أقدامها فى أمواج « مد » النفوذ الاوروبى ، الذى أزال عنها آثار التقاليد العتيقة ، وشربها بروح الحاضر الذرى !

« والبلاد اذ تلقى دثارها ، وتفك أزارها ، تتكشف لزائرها كمتحف ليست له أسوار ! .. أو كمشهد عريض رائع من الاطلال الاثرية ! .. وان تركيا الحديثة لهى من الغموض فى أذهان غالبية الغربيين بحيث يندر أن يقرنوها بالحقب التاريخية الخالدة التى تنتمى اليها . ففى الازمان الغابرة بنى الحيثيون والسومريون حضاراتهم على سهولها وشطئانها ، التى ازدهرت طوال ثلاثة آلاف عام .. وان هذه الاسماء اليونانية المتداولة المشهورة ، مثل : طروادة ، أيونيا، أفسس ، لهى من معالم تركيا التى تدخل فى نطاق حدودها :



أطلال مدينة (أفسس) ، قرب بحر (ايجه) ، وقد أسست عام ١٠٠٠ قبل الميلاد ، وكانت مركزا تجاريا هاما فى عصر الرومان

ففى حمامات مدينة (أفسس) كان الامبراطور ((مرقس أوريليوس)) يغتسل ويستحم ليعالج مفاصله التى أتلفها الروماتيزم .. وفيها كتب ((تأملاته)) المشهورة ..
ويرجع نسب الاتراك الاصليين الى الجموع الضخمة التى هاجرت الى أرضها من وسط آسيا - (وحتى اليوم ، ما زال خمسون مليونا من سكان روسيا يتكلمون اللغة التركية) !

((.. وخلال العصور التي تلت ذلك ، تعرض الاتراك

لغزوات الهون ، بقيادة « أتيلا » .. والمغول ، بقيادة تيمورلنك وجنكيزخان .. ثم ما لبثت أن زحفت من الشرق عشائر تركية منظمة ـ مثل السلاجقة فى القرن الحادى عشر ، والعثمانيين فى القرن الثالث عشر ـ فاعتنقوا الاسلام وأقاموا الامبراطوريات التركية العظيمة التى حكمت حتى بداية القرن العشرين .

« وتركيا الحديثة تبدأ بمصطفى كمال ، ضابط الجيش الذى انتشل وطنه ـ بين يوم وليلة ـ من ماضيه الرجعى الذى انحدر اليه عقب الحرب العالمية الاولى ، بانحلال الامبراطورية العثمانية ثم انهيارها .. **اذ لم يكد « كمال » يتولى زمام الحكم حتى أصلح الجيش ، وتخلص من السلطنة ـ بحريمها ، وفساد بلاطها ، واستبدادها البغيض ـ وألهب مشاعر الشعب بوطنية جديدة** .. فلما حل عام ١٩٢٣ كان الامر قد استتب له تماما ، فأعلن قيام الجمهورية ، وألغى الحجاب والطربوش ـ كرمزين للرجعية ـ وفصل الدين عن الدولة . وحين مات « أتاتورك » عام ١٩٣٨ ـ نتيجة لارهاقه نفسه بالعمل ، وافراطه فى استهلاك صحته ـ كان قومه قد « ألهوه » ! .. أو كما قال عضو مفصول من جماعة الدراويش التى حلها أتاتورك وألغى وجودها : « كيف كنا لنعترض على حكمه ؟ لقد كان ديكتاتورا عذبا ! »

فأل حسن .. فى المطار !

• وقطع على استرسالى فى القراءة صوت المضيفة الناعم تعلن أننا نوشك أن نهبط فى مطار اسطنبول ـ واسمه

الرسمى مطار « ييسيلكوى » - وتطلب الينا ذلك الطلب التقليدى: أن نكف عن التدخين ونربط الاحزمة على خصورنا. وكان الليل قد انتصف تماما حين غادرنا الطائرة ، فى طريقنا الى دائرة الجمرك والجوازات . وكنت قد قرأت فى احدى الصحف وصفا لتشدد السلطات التركية فى تفتيش زائريها ، لمنع دخولهم بأكثر من قدر ضئيل من العملة التركية النقدية، بحكم البون الشاسع بين سعرها فى أسواق العالم الحرة ، وسعرها فى داخل تركيا . (فكان السائح الامريكى يومئذ يستطيع مبادلة دولاره فى سويسرا مثلا أو لبنان بنحو ١٦ ليرة تركية، فى حين لم يكن يحصل مقابل الدولار فى اسطنبول الا على تسع ليرات فقط ، بالسعر الرسمى - ولم يكن يجرؤ على المبادلة بأحسن من هذا السعر فى السوق السوداء لان السلطات تطالبه باعلان عدد الدولارات التى يحملها عند دخوله وعددها عند خروجه ، وما نقص منها ينبغى أن يقدم عنه شهادات مبادلة من البنوك أو الفنادق ، والا .. جلب على نفسه المتاعب التى لا أول لها ولا آخر !)

بل لقد قيل لى يومئذ أن السعر الرسمى للدولار فى تركيا كان قبل ذلك التاريخ بفترة وجيزة أربع ليرات فقط ، فلما استفحلت المبادلات فى السوق السوداء ، اضطرت السلطات الى رفع سعره الرسمى من ٤ الى ٩ ليرات تركية .. **ومع ذلك لم تتوقف المبادلة فى السوق السوداء ، فان الفرق كان ما يزال كبيرا بين ٩ ليرات و ١٦ ليرة ، ومن هنا كان بعض المغامرين يشترون دولارات السياح الامريكيين بنحو ١٢ أو ١٣ ليرة ، لتبيعها عصابات المهربين بعد ذلك فى سويسرا**

ب **١٦ ليرة !** .. (وتنقسم الليرة التركية الى مائة «قروش» ــ وهم ينطقونها « كروش » Kurus أى ان القرش التركى بمثابة نصف مليم مصرى .)

ولم يكن الحظر فى الجمارك مقصورا على العملة التركية ، بل كان يتعداها الى سائر الكماليات التى حرم استيرادها فى تركيا ،أو قيد ،مثل العطور الفرنسية ،والبضائع الامريكية ، والويسكى الاسكتلندى ، و .. البن ! ــ ولا تعجب ، فقد كان الحصول فى تركيا على قدح من القهوة « التركية » أمرا عسيرا للغاية ، واذكر انى لم أجده ألا فى « كافتريا » فندق هيلتون باسطنبول ، وكان ثمنه نحو خمس ليرات تركية ، أى أكثر من عشرين قرشا مصريا ! .. وقد سألت أحد الاتراك عن سبب تحريمهم لاستيراد البن ، فأبدى دهشته من دهشتى ، بقوله : « ان العملات الصعبة التى ننفقها فى شراء البن ، نستطيع أن نفعل بها الكثير مما ينفع البلاد .. وفى وسع المرء أن يشرب بدلا من قدح القهوة قدحا من الشاى مثلا .. »

على أننى اذا كنت قد هضمت فكرة منع استيراد البن ــ ربما لانى لا أدمن تناول القهوة ــ **فانى لم أستطع هضم فكرة منع استيراد أفلام التصوير العادية ، سيما فى بلد سياحى وميناء عالمية مثل اسطنبول** . ولولا أننى كنت أحمل ما يكفينى من أفلام لانى كنت فى طريقى الى أوربا وكنت حريصا على عدم انفاق عملتى المحدودة فيها فى شراء أفلام، لكنت عجزت عن التقاط صورة فوتوغرافية واحدة فى اسطنبول !

ولأعد من هذا الاستطراد الى .. جمرك مطار اسطنبول .. فأقول ان حظى فيه كان حسنا ـ رغم كل ما سمعت ـ فلم تستغرق الاجراءات معى فيه أكثر من دقائق ، اكتفى الموظف خلالها باقراراتى فلم يتعبنى بتفتيش ولا تحقيق .. وكان هذا فألا طيبا استبشرت به ، أو كان عاملا « سيكلوجيا » أشعرنى بأننى سأقضى فى اسطنبول أياما ممتعة !

وقد كان ..

غرفة .. لشخصين !

• **وقبل** أن أغادر المطار القيت عليه نظرة سريعة ، فاذا فيه مطعم كبير ، **ومكتب للبريد والتلغراف ، ومكتبتان لبيع الكتب والصحف والمجلات ـ بجميع اللغات !** ـ احداهما فى الصالة العليا المخصصة للمسافرين ، والاخرى فى الصالة السفلى الخاصة بركاب « الترانزيت » العابرين .

وأحسست بشىء من الحسرة والخجل ، من مطار القاهرة .. الحالى !

ومطار اسطنبول يبعد عن وسط المدينة نحو ٤٥ دقيقة بالسيارة ، وطريقه يكاد يخلو تماما من العمران . وسيارات شركات الطيران تقلك منه الى المدينة مجانا ، (بينما هى تتقاضى عندنا ، من مطار القاهرة الى قلب المدينة ، عشرين قرشا من كل راكب) . أما لو شئت أن تركب سيارة « تاكسى » من مطار اسطنبول الى وسط المدينة ، فانك تدفع عشرين ليرة تركية ، أى نحو جنيه مصرى كامل .

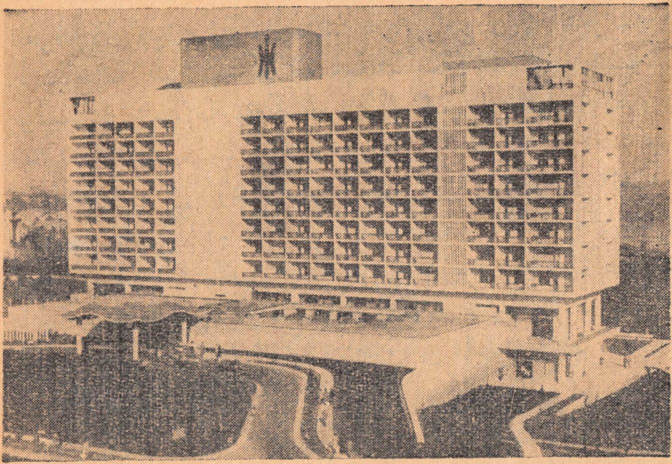
وكنت الراكب الوحيد فى سيارة شركة الطيران ـ الراكب

الذى لم تكن فى انتظاره سيارة خاصة ، ولا صديق ! ـ ولم يصحبنى فى السيارة سوى موظف الشركة المكلف بتوصيلى الى الفندق الذى حجزوا لى غرفة فيه ..

ولهذا الحجز قصة طريفة :

فقبل سفرى من القاهرة ، التقيت فى مكتب شركة الطيران التى أعدت لى التذكرة ، بسائح أجنبى جاذبنى الحديث ، فقال انه يعرف اسطنبول جيدا ، ويعرف أنها تكون مزدحمة للغاية فى مثل ذلك الوقت من السنة ، بحيث يتعذر على أن أجد فيها غرفة بسهولة ، أن لم أحجزها مقدما قبل سفرى . وأضاف أننى لن أجد غرفة « لائقة » الا فى فندق من فنادق الدرجة الاولى ، لان اسطنبول ليس فيها فنادق من الدرجة الثانية ! **(وقد ذكرنى هذا فيما بعد ـ حين عرفت اسطنبول ـ بما يقال للسائحين القادمين الى بلادنا ، عن القاهرة !)** .. ثم ختم السائح نصيحته بأن الفندق « الوحيد » المريح فى اسطنبول ، والتالى فى الدرجة لفندق « هيلتون » ، هو فندق « ديفان » .. فما كان منى ، بدافع الحيطة والشكران للظروف التى قيضت لى هذا الناصح الامين ، الا أن أخذت بنصيحته « مبخرة ، معطرة » ، فاستبعدت منها شقها الاول بطبيعة الحال ، (أعنى فندق « هيلتون ») ، وبادرت فطلبت الى الموظف الذى أعد لى التذكرة أن يحجز لى غرفة فى الفندق الآخر الذى يليه فى الاسعار : فندق ديفان ، (وهى على ما فهمت تحريف لكلمة « ديوان » العربية) .

ثم سافرت مطمئنا .. ووصلت مطار اسطنبول مطمئنا



فندق « اسطنبول هيلتون » ، وبه حدائق مدرجة وأحواض للسباحة ، وتحيط به مناظر رائعة تنتهى الى البحر ..!

.. وركبت سيارة شركة الطيران مطمئنا .. وقطعت بى السيارة المسافة الطويلة من المطار الى قلب المدينة وأنا .. مطمئن ما أزال .. حتى وقفت بى فى ميدان فسيح ، أمام باب الفندق المنشود ، وسكون الساعة الواحدة بعد منتصف الليل يخيم على الحى بأكمله ، وهنـاك نادى موظف شركة الطيران حمـالى الفنـدق ليحملوا متاعى من السيارة ، ثم صافحنى متمنيا لى طيب الاقامة ، وانصرف بسيارته ..

وبعد أن تسلمت من موظف الاستقبال بالفندق مفتاح

الغرفة المحجوزة لى ، وسألته عن برامج زيارة المدينــة فى الصباح ـ التى تبدأ فى الساعة التاسعة ـ طلبت اليــه أن يوقظنى فى السابعة والنصف ، ثم يرسل الى طعام الافطار فى الثامنة والنصف .. وهنا ، على ذكر الافطار ، حرصت على أن أخطره بأننى أود الاحتفاظ بحريتى فى تنـاول الغـداء والعشاء خارج الفندق ، فى أى مطعم من مطاعم الحى الذى أكون فيه ساعة تناول الطعام .. فقاطعنى بقوله ان وجبات الطعام الثلاث ، بما فيها وجبة الافطار ، ليست محســوبة ضمن أجر الغرفة ، الذى يقتصر على المبيت فقط :

ـ وكم أجر الغرفة ؟

ـ ٧٤ ليرة (أى نحو ٤ جنيهات مصرية وقتئذ) !

ـ ليه يا أخي ؟ ـ (ويخيل الى أنى قلتها بالعربية ، من فرط غيظى !) ـ ٧٤ ليرة عن غرفة مفردة لشخص واحد ؟

ـ كلا يا سيدى .. بل هى غرفة لشخصين .

ـ شخصين ؟ ! .. ولكنى وحيد كما ترى !

ـ هذا ليس شأننا ، فقد طلب منا حجز غرفة لاثنين ..

ـ ومن الذى طلب اليكم ذلك ؟

ـ شركة الطيران بالطبع ..

(وطبعا كانت هذه أكذوبة مكشوفة ، اذ لا يعقل أن تختلق شركة الطيران شيئا كهذا دون طلب منى ، وهى تعلم أنهــا قطعت لى تذكرة لشخص واحـد ! .. وقد عرفت خـلال أسفارى أن هذه حيلة « قديمة » تلجأ اليها الفنادق الكبرى فى كثير من العواصم ، لاستغلال روادها !)

وأنا بطبعي أكره الفنادق الكبرى التي « تذبح » نزلاءها

ذبحا «مشروعا» ، دون أن تقع تحت طائلة قانون العقوبات! .. بل انى أحرص على تجنبها، ربما لسبب آخر ، هو أن طابعها و « جوها » يتشابه فى جميع البلاد ، بحيث لا تحس وأنت فيها بطابع البلد الذى تزوره ! .. **ثم انى لا أزور العواصم لاتحدث الى رؤساء الحكومات ، بحيث أنتقى الفندق الذى يكسبنى « مهابة » تغريهم باستقبالى والتحدث الى .. وانما انا أزور البلاد لارى معالمها ، وأعيش فى تاريخها ، وأغذى مشاعرى بجبالها ومناظرها ومتاحفها ، وأتعرف الى شعبها .. فى الطريق ، والاتوبيس ، والمقهى ، والنزهات الصغيرة ..** أزور اسطنبول مثلا ، لا لاظفر بحديث مع زعيم من زعمائها، وانما لاجلس ربع ساعة فى المقهى الجبلى الذى كتب فيه الروائى الفرنسى « بيير لوتى » أروع قصصه .. أو أرى الحجرة التى مات فيها « مصطفى كمال » فى قصر « ضولمة بغجة » .. أو أرقب غروب الشمس على شاطىء البوسفور أو « القرن الذهبى » ، حيث قامت امبراطوريات ، ودالت امبراطوريات ، ودارت معارك بحرية غيرت وجه التاريخ !

.. أو لاركب سفينة تتهادى على مياه (بحر مرمرة) ، فى مواجهة شاطىء القرم ، حيث أدت « فلورنس نايتنجيل » أجل خدماتها للانسانية !

.. أو لاجوس لحظات ، رهيبة ، فى قلب مسجد « أيا صوفيا » ، أتطلع الى سقفه وجدرانه الشاهقة ، وكأنى « نملة » أدب على صفحة تاريخه العريق ، الحافل ، وأنا أتمثل ببيت الشعر البليغ اللبق الذى قاله فيه شاعرنا شوقى :

كنيسة صارت الى مسجد هدية السيد الى السيد

فندق شاعرى .. من فنيسيا !

• و ((**بلعت**)) حيلة الفندق الكبير ، بعد أن أبى موظفه أن يعطينى غرفة مفردة بدلا من الغرفة المزدوجة ((المحجوزة)) لى ، او ان يحسب لى أجرها كأنها مفردة - كما تفعل فنادق العالم كله حين لا توجد بها غرفة خالية لشخص واحد - فقررت أن أقضى فيها ليلتى ، ((بالطول أو بالعرض)) ، وفى الغد انتقل الى فندق آخر ..

وبالفعل ، عوضتنى المصادفة فى اليوم التالى عن هذا ((المقلب)) ، حين عثرت على غرفة جميلة فى فندق آخر صغير جديد ، مبنى على الطراز العصرى الامريكى - اسمه فندق ((بلازا)) - وكان أجمل ما فيه ان حجراته تطل على مناظر ((شاعرية)) ذكرتنى بمناظر ذلك الفندق من فنادق مدينة فنيسيا الذى رأيناه فى فيلم ((كاترين هيبرن)) والنجم الايطالى ((فيتوريو برانزى)) ، وكان اسمه على ما أذكر ((غرام ، ذات صيف)) ..

وشىء آخر أعجبنى فى هذا الفندق ، وذكرنى أيضا بذلك الفيلم ، هو ان مدخله ((الرومانتيكى)) الملتوى بين حدائق البيوت المجاورة ، يضفى عليه طابعا روائيا خلابا ..

ورغم هذه المفاتن ، فقد كان اجر الغرفة ((المفردة)) فيه .. تسعا وعشرين ليرة فقط .. وليس ٧٤ ! !

كل ساعة من النوم .. تكلفنى جنيها !

• **وصعدت** الى غرفتى بفندق ديفان ، فنفثت غيظى فى

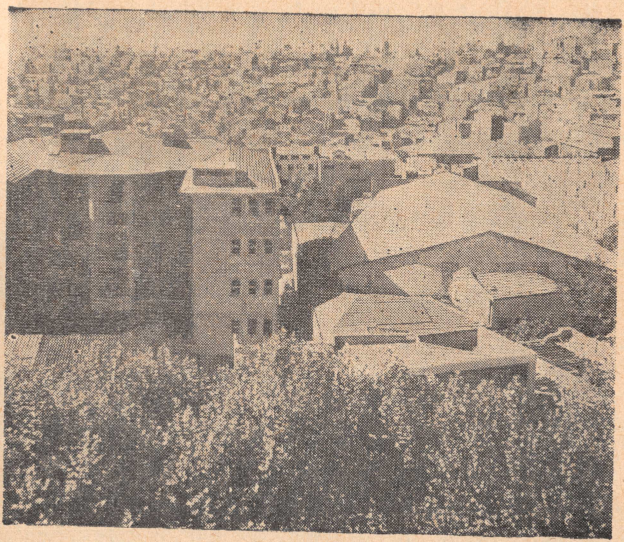
حمام ساخن أزلت به « وعثاء » الطائرة ، ثم أدرت مفتاح « راديو الغرفة » ، أو الميكروفون الذى ينقل الى الحجرات موسيقى الاسطوانات الخفيفة التى يذيعها الفندق ، فوجدته صامتا أخرس ! — ولا عجب فقد كانت الساعة الثالثة والنصف صباحا !

وتذكرت انهم سيوقظوننى فى السابعة والنصف ، فلم أجد مفرا من النوم .. على الاقل كى آخذ حقى فى الساعات الاربع الباقية ، التى سأدفع عن كل منها ١٨٫٥ ليرة !

(أرأيت — ايها القارىء العزيز — كم تكلفنى رحلاتى ، من أجل كتابة هذه المقالات لك ؟)

* * *

وصحوت على صباح مشرق ، فأطللت من النافذة — وكانت فى طابق مرتفع — على منظر رائع للمدينة الخالدة ذات المنائر والقباب ، وهى تستحم فى شمس الخريف .. وأضعت أكثر الوقت فى التقاط بضع صور تذكارية من مختلف الزوايا ، ثم تناولت افطارى على عجل وانا أنظر فى ساعتى خشية أن تفوتنى سيارة شركة السياحة التى ستطوف بى جولتى الاولى فى المدينة . **وحين ركبتها من أمام باب الفندق لم أكن أعرف اين انا من اسطنبول** ، لكنها لم تكد تنعطف وتسير فى شارع (جمهوريت) حتى تتابعت امام ناظرى لافتات مكاتب شركات الطيران والسياحة ، فأدركت اننى فى قلب المدينة تماما .. وبعد بضعة أمتار انعطفت نحو ساحة كبرى الى اليمين ، فاذا أنا أمام فندق هيلتون الرائع — وهو بموقعه ،

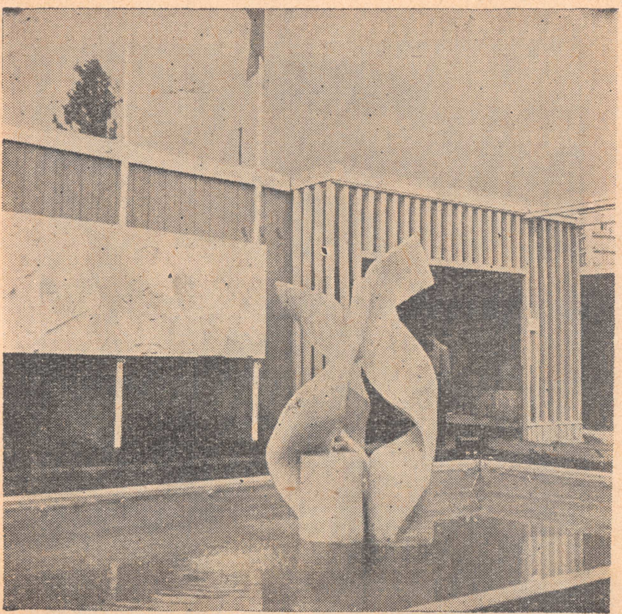


جانب من القسم الحديث من اسطنبول ، كما يبـدو من نافذة غرفة عالية بفندق (ديفان) ..

وحدائقه ، وصالاته ، أجمل من هيلتون القاهرة بكثير - وقد توقفت السـيارة لاخذ من يبغى الاشـتراك فى الجولة من نزلائه . وصعد سائح بلجيكى وزوجته الشقراء ، وطفلاهما ، ثم شابة أمريكية تعمل سكرتيرة لنائب رئيس تحرير مجـلة (لايف) العـالمية ، وسـيدة انجليزية ، وبعض العجـائز الامريكيات ، وفتاة برازيلية سمراء تدرس فى باريس ، و ..

و .. خليط عجيب من مختلف الشعوب والاجناس ، جعل سيارة الاوتوكار الضخمة اشبه بعصبة أمم !

واستأنف الاوتوكار سيره فدار حول ابنية المعرض التركى ـ الشبيه بسوق للانتاج القومى ـ ثم انحدر فى شوارع



جناح من معرض الانتاج التركى فى اسطنبول ، وقد صمم تصميما عصريا جميلا .

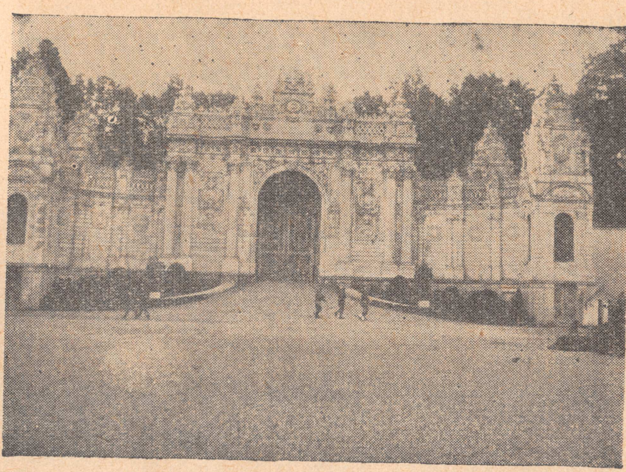
جميلة متجها نحو المرسى الذى سنستقل منه احدى السفن التى تذرع البوسفور ذهابا وايابا طوال النهار ، والى ساعة متأخرة من الليل — وهى نزهة اسطنبول الرئيسية — **(ومرة أخرى أحسست بالحسرة لان زائرى القاهرة لا يجدون خطا نهريا منتظما يسير بين حلوان والقناطر الخيرية مثلا ! .)**
واعترض سيرنا فجأة موكب عجيب طويل كان يخترق شوارع



زى جنود « الانكشارية » ، يرتديه جنـدى تركى فى عيد تركيا القومى ..

المدينة الكبرى : موكب فرسان وجنود يرتدون خوذات القرون الوسطى ودروع الحروب القديمة ، وقد بدت أزياؤهم الغريبة خليطا من الالوان الزاهية الحمراء والصفراء ! .. وعلمت أن ذلك اليوم ـ ٦ أكتوبر ـ يوم عيد قومى وطنى يحتفلون به كل عام بهذا المظهر التقليدى . ثم استأنفت السيارة سيرها وأنا أحاول أن أوزع حواسى بين رؤية معالم المدينة ، وتصوير ما يسترعى اهتمامى منها قبل ان يفلت من متناولى بحكم حركة السيارة ، ثم الاصغاء الى ما يقوله الدليل الذى يرافقنا ، باللغات الفرنسية والانجليزية والتركية .. وكتابة مذكرات سريعة مختصرة عما يقول ، فقد كان يبدو مطلعا مثقفا ، يعتد بمعلوماته ، الى حد ما ..

وسمعته يقول : ان عشر مساحة تركيا يقــع فى أوربا ، والتسعة أعشار الباقية تقع فى آسيا .. وان تركيا خاضت فى تاريخها الطويل ٣٣ حربا ضد روسيا ، وانها اليوم حصن هام ضد الشيوعية .. وان فى مدينة اسطنبول ٤٤٤ مسجدا ، و ٢٠٥ كنيسة ، و ٣٠ معبدا لليهود . ومررنا على « ستاد » رياضى قال الدليل انه يتسع لثلاثين ألف متفرج ، ثم أضاف ان أهم رياضة يمارسها الاتراك هى المصارعة .. ومررنا على قصر كبير ، كان بابه الضخم شبيها بقطعة من « الدانتللا » ، فقال الدليل انه قصر « ضولمة بغجة » الذى شيده السلطان عبد المجيد ، وبه ٢٢٠ حجرة ، وقد مات « مصطفى كمال » فى احدى حجراته ، أثناء زيارته لاسطنبول فى نوفمبر عام ١٩٣٨ . (ولا بد ـ لزيارة القصر ـ من الحصول من ادارة



بوابة رائعة منقوشة كالدانتللا ، هى أحد مداخل قصر (ضولمه بغجة) الذى شيده السلطان عبد المجيد ، عام ١٨٥٣

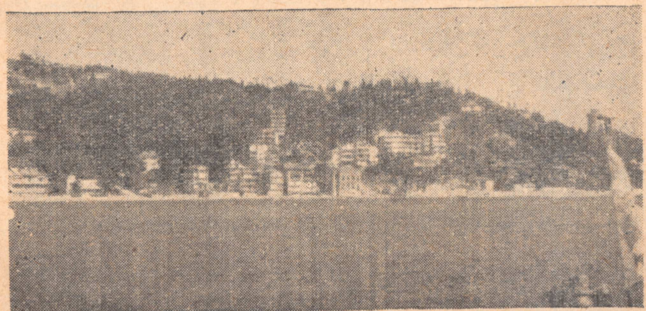
السياحة التركية على تصريح خاص ، والزيارة مقصورة على يومى الاربعاء والجمعة فقط ، وفى ساعات بعد الظهر ، دون الصباح .)

نزهة بحرية فى البوسفور

• **وكنا** قد وصلنا الى مرسى السفينة فنزلنا من السيارة ، لكننا انتظرنا وقوفا على عتبة المرسى أكثر من نصف ساعة ، حتى وصلت السفينة وبدأ ركابها ينزلون .. ولحظت أن أكثر الركاب من عجائز الاتراك - نساء ورجالا - ومعهم أطفالهم ،

أو بالاحرى أحفادهم ، (ولا بد أن الشباب من الجنسين كانوا فى تلك الساعة من صباح يوم الاثنين فى مقر أعمالهم ، أو فى مدارسهم وجامعاتهم) .. وحين أفرغت السفينة من فيها ، ركبنا ، وصعدنا الى سطحها لنستمتع بالمنظر الكامل لشاطئى البوسفور ، رغم أن الشمس كانت باردة والهواء شديدا .. ولم أملك الا أن أقارن بين تلك السفينة المتواضعة فى مظهرها وأثاثها ، وبين مثيلتها الفاخرة البراقة التى تنقل الركاب بين شاطئى (هونج كونج) و (كاولون) فى الشرق الاقصى . **(لكنى حين أذكر اليوم كارثة باخرة النيل المشئومة ((دندرة)) ، أبتلع ملاحظتى وألوذ بالصمت !)**

ومضت السفينة تشق البوسفور ، المضيق المائى المشهور الذى يحف التاريخ بشاطئيه ، والذى يفصل بين قارتين ، اذ يقع شاطىء منه فى آسيا ، والشاطىء المقابل له فى أوربا ! .. **وعلى كلا الشاطئين تتناثر — فوق الروابى الخضر — القصور**



الروابى الخضر التى تحف بالبوسفور من شاطئيه ..

الصيفية للاغنياء ، ومعالم التاريخ : من قلاع ، وحصون ، ومساجد وكنائس أثرية ، وقصور عريقة للسلاطين ، وأبراج .. الى جانب الفيلات العصرية ، والفنادق ، والمطاعم والمقاهى ، وشواطىء الاستحمام .. بل والغابات البديعة ، والحدائق الغناء التى تتضوع بالازهار ..

ويتقارب الشاطئان فى أضيق مواضع البوسفور فلا يفصل بينهما غير ٤٥٠ مترا من الماء .. فى حين يتسع المضيق فى مواضع أخرى فيبلغ عرضه خمسة كيلو مترات ! .. أما عمقه فيتراوح بين خمسين وسبعين مترا ، وان كان يصل فى بعض المناطق الى ١٢٠ مترا . وتندفع مياهه بسرعة سبعة كيلو مترات فى الساعة (وبمتوسط ٣٢ ألف ياردة مكعبة فى الثانية) .. وتشتهر مياه البوسفور بالشفافية والصفاء ، حتى لترى قاعه أحيانا . ونظرا لقلة نسبة الملح فى هذه المياه فان الاسماك تكثر فيها ، وتتنوع اصنافها الشهية .

ويتعرج مجرى البوسفور حوالى ثمانية تعرجات كبرى رئيسية ، عدا التعرجات والخلجان الصغيرة التى لا تقع تحت حصر . ويبلغ طوله ١٩ ميلا ، (أى نحو ٣٢ كيلو مترا) ، تصل بين البحر الاسود ، فى طرفه الشمالى الشرقى ، وبحر مرمرة فى طرفه الجنوبى الغربى . (وفى الجانب المقابل من بحر مرمرة ، يقع مضيق الدردنيل ، الذى يفضى بدوره الى بحر ايجه ، والبحر الابيض المتوسط .. كما هو واضح فى الخريطة المنشورة مع هذا المقال .)



بحر « مرمرة » الذى يفصل تركيا الاوروبية عن تركيا الاسيوية ، ويفصله عن بحر ايجه والبحر الابيض مضيق الدردنيل ، كما يفصله عن البحر الاسود مضيق البوسفور (موضوع هذا المقال) الذى تقع على ضفته مدينة اسطنبول • ويقسم المدينة الى قسمين ممر مائى متفرع من البوسفور هو « القرن الذهبى » الذى تربط بين ضفتيه قنطرة « جالاتا » وقنطرة « اتاتورك » ..

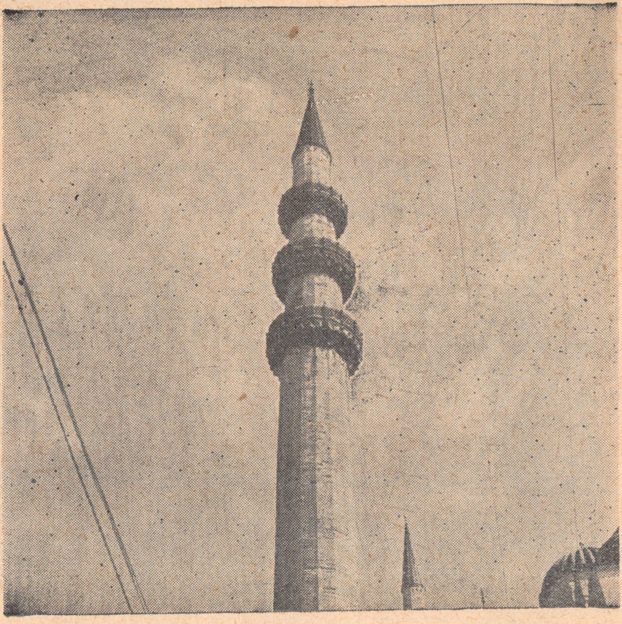
واسم ((البوسفور)) يعنى ((مضيق البقرة)) ، وترجع هذه التسمية الى الاسطورة الاغريقية التى تروى قصة الربة ((أيو)) ، التى مسخها كبير الآلهة ((جوبيتر)) (أو ((زوس))) الى بقرة ، فعبرت هذا المضيق سابحة !

وخلال البوسفور ، يوجد ٢٧ ميناء أو محطة تتوقف عندها السفينة ليصعد اليها ركاب ، وينزل منها آخرون — (منها ١٥ محطة على الشاطىء الاوربى ، و ١٢ على الشاطىء الاسيوى) — وتتسع بعض السفن الكبيرة التى تعمل على هذا الخط لنحو ألف وخمسمائة راكب .

رحلة .. بين ضفتى التاريخ !

• **والآن** تعال نطل من فوق ظهر السفينة على المعالم الهامة التى نمر بها ، وأكثرها على الشاطىء الاوربى ، أى الذى يقع الى يسارنا ونحن نسير فى اتجاه البحر الاسود :

هذا هو مسجد السلطان سليمان ، الذى يتوج قمة التل الثالث من التلال التى شيدت عليها اسطنبول **(فهى — مثل روما — مشيدة على سبعة تلال !)** .. ويليه مسجد الملكة الوالدة — لست أدرى والدة من ، من سلاطين تركيا ! — ثم هاهو أشهر آثار اسطنبول : ((**ايا صوفيا**)) ، الاثر الخالد الذى بدأ ككنيسة ، ثم حول الى مسجد وشيدت له أربع مآذن . وفى عام ١٩٣٢ حول من جديد الى ((متحف)) ، يؤمه الزائرون والسياح . والى جواره ، المسجد الرائع المشهور الذى شيده السلطان أحمد ، ويطلق عليه ((المسجد الازرق)) ، وينفرد دون مساجد العالم بأن له ((ست))



مئذنة مسـجد السلطان احمد (المسجد الازرق) - وهو الوحيد فى العالم ذو المآذن الست!!- تبدو شامخة تشق سحب السماء ..

مآذن شاهقة ! .. (وسوف أحـدثك عن تاريخ المسجدين ومحتوياتهما بتفصيل أكثر ، فى الفصل القادم باذن الله) .

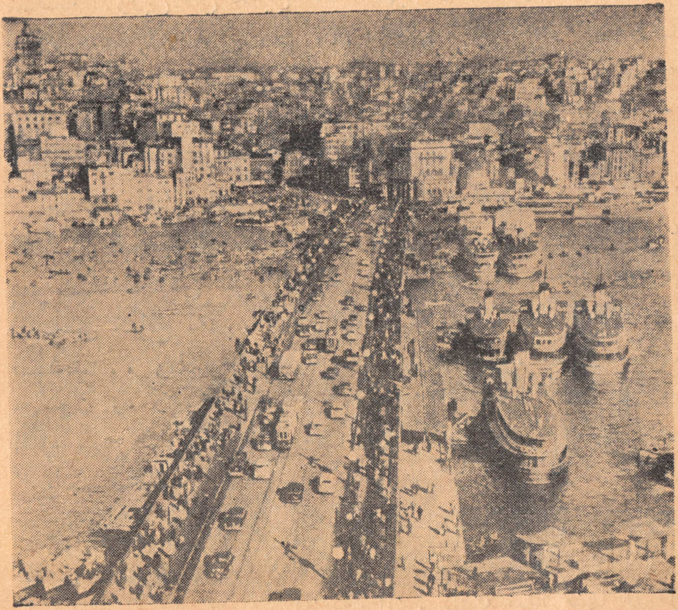
ثم تتابع السفينة سيرها فى البوسفور ، فنلمح ابنيـة قصر سلاطين تركيا التاريخى المشهور (**سراجوغلو**) - وسوف



المسجد الازرق (مسجد السلطان احمد) من أعظم معالم اسطنبول

نزوره سويا فيما بعد ، ونرى كنوزه و « عجائبه » التى تجل عن الوصف ! ـ وتبدو حول القصر حدائقه الغناء ، ثم أسوار اسطنبول القديمة التى كانت تحميها من هجمات الاعداء .. وهذا (مسجد على باشا) ذو المئذنة الواحدة ، الذى صممه المهندس المشهور « سنان » ، عام ١٥١٨ .. ويليه المسجد

ذو المئذنتين ، الذى بناه السلطان محمود الثانى عام ١٨٢٦ .
وها نحن نرى عن يسارنا قنطرة كبيرة تموج بزحام شديد من المارة والسيارات وعربات الترام والاتوبيس . انها أشهر وأكبر قنطرة فى أسطنبول ، وتدعى **قنطرة (جالاتا)** . وهى تربط بين اسطنبول القديمة ، واسطنبول الجديدة التى



قنطرة (جالاتا) ، فوق خليج (القرن الذهبى) ، الذى يقسم اسطنبول الى قسمين : اسطنبول القديمة ، واسطنبول الحديثة ..!

يسمونها (بيوجلو) — وهى كلمة تركية معناها «ابن السيد» — والمدينة الجديدة هى التى تضم الاحياء والشوارع العصرية ، والفنادق الكبرى ، والمتاجر والمطاعم والملاهى وشركات السياحة .. الخ . ويفصل بين قسمى اسطنبول الممر المائى المشهور باسم « **القرن الذهبى** » ، وهو فرع من البوسفور يقسم شاطئه الاوربى الى هذين القسمين . وقد شيدت قنطرة جالاتا بشكلها الحالى عام ١٩١٠ ، وهناك قنطرة أخرى حديثة تربط بين قسمى المدينة — عبر القرن الذهبى أيضا — هى قنطرة أتاتورك ، وتبعد عن الاولى بضعة كيلو مترات . (أنظر الخريطة الموضحة لهذه المواقع فى صفحة ٢٩)

أما هذا المبنى الابيض فهو مبنى كلية الآداب ، تليه كلية الفنون الجميلة .. وهذا قصر (ضولمة بغجة) ، بمرساه الخاص على البوسفور ، وبرج الساعة الضخم الشاهق التابع له .. وهذا مدرج « الستاد » الرياضى الجديد .. والمسرح الصيفى فى الهواء الطلق .. وفندق هيلتون .. وكلية الهندسة .. ومحطة الاذاعة .. وفوق التل تلوح لنا الآن أكاديمية أتاتورك الحربية .. وقصر الرياضة ..

ثم تقترب السفينة من احدى موانىء الشاطىء الاسيوى المقابل ، فنرى منطقة « **أسكدار** » (أو « سكوتارى ») فى طرف الاناضول ، وهى المنطقة التى كانت تبدأ منها قوافل الابل رحلاتها الى بغداد فى الازمان الغابرة ..

(وفى العدد القادم نواصل رحلتنا معا باذن الله)



بيكاسو

أسطورة القرن العشرين!

الفنان، وداعية السلام، الذى حطم جميع مقاييس الفن وتقاليده
حار الناس والنقاد فى فهم فنه.. ومع ذلك جمع من هذا الفن ثروة طائلة!

كتاب .. ودمعة على صديق !

عزيزى القارىء ..

.. أما قصة لقائى مع هـذا الكتاب ، فان لها فى نفسى ذكرى أليمة حقا .. ذكرى تبدأ ذات يوم منذ شهور ، حين لقينى صديق كريم ـ هو فى الوقت نفسه طبيب ، وعسكرى، وأديب ـ وكان قد طالما ابدى لى اعجابه ب (كتابى) ، وساهم فى تلخيص كتابين نشرا فى حينهما ، (أحدهما عن « عـالم الغد » ، والثانى عن الامراض التى تفشت فى جيوش نابليون، وأدت الى هزيمته) .. فلما لقينى فى تلك المرة تفضل فدعانى لزيارته فى بيته كى يرينى مكتبته الخـاصة ، لانتقى منهـا ما يروقنى فألخصه لقراء كتابى .

وصحبته .. وخرجت من الزيارة بهذا الكتاب الشائق .

ثم شاءت الظروف ، أن أفتح الصحف ذات صباح منـذ أسبوعين ، فأفاجأ فيها بنعى الصديق الكريم !

فالى روح الصـديق النبيل الراحل ، المرحوم الدكتـور **محمد جلال الدين** ، أهدى هذا التلخيص .. شـاكرا .. باكيا .

ولد .. وفى يده قلم !

• **اذا** جاز أن يقال ان ثمة انسـانا قد ولد وفى يده قلم رصـاص ، فان هـذا الانسـان هو « بابلو نيبوميوشينو كريسبينيانو ديلا سانتيسيما ترينيداد رويز اى بيكاسو » .. اسم طويل ، ما كان بوسع احد أن يستذكره ، بله أن ينطق به ، مما حدا بزملاء الصبى ـ فى صـغره ـ الى أن

يقتضبوه الى « بابلو رويز » . ولكنه حين كبر ، وبدأ يعرض انتاج القلم الذى ولد به ، أضاف لقب الاسرة الى هذا الاسم ، ثم نزل عن اسم أبيه « رويز » ، فأصبح معروفا للعالم بأسره باسم « بابلو بيكاسو » ! .. **وقد ازداد هذا الاسم ذيوعا وانتشارا ، عندما ساهم صاحبه فى حركة انصار السلام العالمية ، واتخذت الحمامة التى رسمها ، رمزا للحركة وشعارا لمؤتمراتها .**

وقد ولد «بيكاسو» فى ٥ أكتوبر سنة ١٨٨١ ، فى (ملقا) بأسبانيا ، لاب متوسط الحال، يدعى «جوزيه رويز بلاسكو» ، كان مدرسا للرسم . ولعل هذا يفسر لنا شغف الصغير ــ منذ نعومة أظافره ــ بالرسم . ولم يكن رسمه اذ ذاك مجرد عبث أطفال، بل انه كان ينم ــ فى الواقع ــ عن روح فنية واضحة ، متغلغلة فى فطرته .. ولم يكد يتجاوز العاشرة من عمره ، حتى بدأت هذه الروح تتألق وتلمع .

امتحانات شهر .. يؤديها فى يوم !

• **وفى** سن الرابعة عشرة ، رسم « بيكاسو » لوحات لا تزال تعتبر اليوم ــ رغم مرور خمس وستين سنة ــ أمثلة للفن التعبيرى الواقعى ، ونماذج لعمق ما تستشفه بصيرة الرسام وراء مظهر النموذج الذى يرسمه .

وفى تلك السن ، قدر لابيه أن ينقل الى (برشلونة) أستاذا للرسم ، فانتقلت معه أسرته ، والحق « بابلو » بمدرسة الفنون الجميلة .. **وكان لابد للطالب من أن يجتاز اختبارات ، يمنح شهرا لادائها . ولكن « بابلو » استطاع أن**

يؤديها فى يوم واحد !

وفى سن السادسة عشرة ، أقدم الفنان الصغير على الاشتراك فى معرض الفنون الجميلة فى (مدريد) ، ففاز باحدى جوائز المعرض . وان هى الا أشهر قلائل – بعد ذلك – حتى كان له مرسم خاص . ولم يكن هذا المرسم يضم الى جانب حامل اللوحات سوى سرير ومقعد ، **فعمد ((بابلو)) الى ريشته ، ورسم على الجدران أفخم قطع الاثاث وأدوات الزينة !**

وراح يهيم فى الطرقات ، وأرصفة الميناء ، والمشارب والحانات ، يرسم كل ما كانت عيناه تقعان عليه : متسكعون ، وعمال منهمكون فى كدحهم فى الميناء ، وراهبات ، وبغايا ، وكلاب ، ونساء أنيقات ، وشيوخ مكدودون ، وحوذيون ماجنون ..

حائر .. بين أساليب الرسم !

• **وعندما** بلغ التاسعة عشرة من عمره ، لم يكن ثمة شك فى أنه قد خلق للنجاح . فرحل الى باريس ليجرب حظه ، واذا به يبيع ثلاث لوحات فى شهر واحد . وشغل فى العاصمة الفرنسية بدراسة بعض أساليب الرسم ، ثم عاد الى العاصمة الاسبانية ، حيث بدأ يصدر مجلة فنية ، وحيث أبدى براعة فى الرسم بالباستيل .

ولكنه سرعان ما عاد الى باريس ثانية ، ليقيم فيها هذه المرة ، ويمارس فنه متأثرا ببعض الاقطاب الذين برزوا فيها .. فتأثر بالاشكال البوهيمية التى رسمها **((تولوز– لوتريك))** ، و بالخطوط الثقيلة التى كان **((فان جوخ))** يجرى بها

فرشاته ، وبتجميعات اللون السطحية التى اشتهر بها «جوجان» . وكان من جراء ذلك أن تحول «بابلو» عن أسلوبه فى استخدام الالوان الخفيفة ، والاشكال المهتزة غير المحددة .

وهكذا راح « بابلو » يأخذ عن مختلف الموارد ، وينتهج الاساليب العديدة .. وكان يتقن كل أسلوب منها فى تفوق بارع ، ثم لا يلبث أن ينبذه ، غير راض عنه . ولعله أكثر رسامى عصرنا هذا تقلبا بين الاساليب .

شخصيات بائسة .. وألوان حزينة

• **وفى** سن العشرين ، كان قد استكمل نضجه الى درجة تمكنه من أن يبدأ أول أعماله الابتداعية ، فشرع فى رسم تلك السلسلة الرائعة من اللوحات التى تمثل شخصيات فقيرة ، بائسة ، شقية ، ذات أجسام هزيلة ، وعظام بارزة ، وأيد معروقة ، وأصابع طويلة نحيفة .. نساء حزينات ، وأطفال يهزون اوتار القلوب ، ومتسولون ، و « بهلوانات » تعساء ، وعاجزون مشلولون ، وازواج وزوجات صرعى الجوع ، ومنبوذون .. الخ .

وكان يغرق لوحاته باللون الازرق القاتم ، الذى ينم عن الاسى ، والازرق السماوى الساجى ، والازرق اللازوردى الشاحب .. **ولم تكن اللوحات صورا لبؤساء أهملهم المجتمع الانسانى بقدر ما كانت رموزا وتوريات بليغة تعبر عن بؤس الدنيا التى يعيشون فيها ، وتنم عن حب عميق للانسانية ، واشفاق عارم على أبنائها !**

وكان فى تلك الفترة من حياته شابا صغير الجسم ،

أسمر ، بادى الاضطراب الى درجة كانت تثير القلق فى نفوس عارفيه .. وكان ذا عينين عجيبتين .. عينين ساكنتين — لا تكادان تتحركان — تشعان بوجوم وادع ، وترسلان نظرات نفاذة الى أعمق الاغوار .. وكانت له يدان كأيدى النساء ، لا تكفان عن الاختلاج بحركات لا ارادية تنم عن ارتباك وخجل . وكان شعره غزيرا ، أسود ، لامعا ، يتألق تحته جبين يشى بالذكاء والعناد معا .. ولم يكن يبدى اكتراثا بزيه وأناقته ، فكان يجمع فى مظهره بين البوهيمى والعامل .

« السيرك » يلهمه اتجاها فى الفن

• **وكانت** لياليه رسما ، وغشيانا للحانات والملاهى ، ومرانا على الرماية بالمسدس .. كما انه كان من هواة مشاهدة مباريات المصارعة ، وحفلات « السيرك » !

وكان شغفه بالسيرك — لا باللاعبين فحسب ، بل بالرواد، وبما وراء الكواليس كذلك — هو الذى استدرجه الى اتجاه جديد فى استخدام الالوان .. فمع أن « البهلوانات » ، والمهرجين الذين كان يرسمهم ، احتفظوا بالطابع الحزين ، البائس ، الذى كانت شخصياته تتسم به ، الا أن اللون لم يعد مقبضا — كالازرق القاتم — ولا باردا ، كالازرق السماوى أو اللازوردى الساجى .. بل انه انتقل من « مرحلة الازرق » — التى يعتبرها معبرة عن انفعال عاطفى مفرط — الى « مرحلة الاحمر الوردى ، أو الاحمر القرنفلى » .. **وهى فترة راح يستعيض فيها عن المرح المادى بظلال وردية رقيقة ، وأصباغ حمراء دافئة** . وأصبحت شخصياته تتسم



« المأســاة » !

لوحة من روائع « بيكاسو » معروضة بمتحف « ناشــيونال جاليرى » للفن ، بمدينة (واشنطون) . بأمريكا

بالتفاف القوام فى تناسق عذب ، ونبل فى السمات لا يشى بعمر .. وهذا - فى عرف النقاد الفنيين - ابداع مدهش بالنسبة لشاب لم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين ، فى ذلك الحين .

كان العالم الذى راح « بيكاسو » يحاول رسمه ، عالما يمتزج فيه النور والظل ، فوق مستوى واقعية الحياة اليومية العادية ، ولكن الناس الذين يسكنونه جمعوا بين الصرامة والسكون . وقد وصف الناقد الفنى « موريس راينال » هذا التطور بقوله : « اننا نلمس فى وجوههم الخالية من التعبير ، دأب بيكاسو على التفكير فى أسلوب يتفرد به . فهو لا يفتأ يصقل الخطوط البارزة ويهذبها ويخففها ، شاقا طريقه نحو مدرسة جديدة . وهو يصل فى هذا الى درجة من الكمال تفوق التصور . فليس من المبالغة فى شىء أن نقول ان عدة لوحات من « العهد الوردى » تقف فى صف واحد مع أرقى وأسمى التحف الرائعة فى تاريخ الرسم »

الهام .. من أواسط افريقيا !

• **وهكذا** كان «بيكاسو» - حين بلغ الخامسة والعشرين - فنانا راسخ القدمين ، يقبل الناس على لوحاته ، ويتنافس الهواة على شرائها . ولقد ذكرت « جرترود شتاين » - وهى من غلاة هؤلاء الهواة - انها جلست أمام بيكاسو ثمانين مرة ، كى يرسم لوحة لها . **وعندما أوشك ان يفرغ من اللوحة ، شعر بأنه لم يكن راضيا عما رسم ، فلم يحجم عن ان محا الوجه من اللوحة محوا !** .. ثم قام برحلة ، ولم يعد الى اتمام اللوحة الا بعد ثمانية أشهر . وفى هذه المرة ، رسم

ملامح الوجه ، ولكن .. دون أن يدعو « جرترود » الى الجلوس أمامه . فقد بدأ يزداد اعتمادا على الذاكرة والخيال ، منه على النموذج المنظور !

والواقع انه كان قد بدأ يفكر فى امكان أن يكون الرسم فنا مستقلا بذاتيته عن المرئيات ، فهو فى جوهره فن تصويرى خالص .. وهذا اغراق فى محاولة تطبيق الدعوة التى كانت تنادى بممارسة « الفن لوجه الفن » ، دون تقيد بالطبيعة ، بل ودون مراعاة لتشابه المرسوم بالاصل الطبيعى .. **فهو فن لا يبدل ويغير فى الطبيعة فحسب، بل انه يبتكر أشكالا وتفصيلات من ابتداع خيال الرسام ، وان لم تطابق الطبيعة فى شىء !**

وكان زملاء له قد اكتشفوا أقنعة منحوتة فى الخشب ، لدى بعض القبائل الزنجية فى افريقيا ، فاذا بالزوايا الحادة ، والخطوط المستقيمة ـ التى اتبعت فى نحتها ـ تبهر الفنان الشاب ، واذا أشكال الاقنعة تسحره ، اذ اكتشف انها كانت تجمع بين سذاجة الفطرة ووحشية البداوة ، بشكل قد يستحيل أن يتوفر فى الطبيعة ، وان كان ـ كما تبدى لعينيه ـ ينم عن جهد فنى .

اللوحة التى أحدثت انقلابا فى الفن !

• **وهز** هذا الاكتشاف مقاييس الجمال المصطلح عليها ، والقواعد التقليدية للفن ، والاصول المتبعة فى رسم الاشكال المنظورة .. وأوحى بامكان اضافة بعد جديد الى الابعاد التى كان الفنان يلتزمها فى الرسم ، وهذا البعد الجديد هو الذى أفضى الى نظرية المكعبات .

والى أن توصل « بيكاسو » الى هذه النظرية ، لم يكن سوى مرتاد يسعى الى اكتشاف احتمالات الاشكال الهندسية . فلم تكن لتلك التماثيل الافريقية قيمة حقيقية لديه ، أللهم الا فى انها ساعدته على تعديل وتنقيح خبرته ، ليحاول أن يرسم للدنيا صورة جديدة ، يطغى فيها كل من « الطبيعة » وما « فوق الطبيعة » على الآخر ، ليؤلفا واقعا فذا . **فهو يحاول أن يصور الجمال بخطوط تجمع بين مايراه فى الطبيعة ، وما يراه بخياله الذى يحلق فوق الطبيعة، وبذلك يمثل الواقع كما يبدو لعينه الفنية ، غير مقيد بما يبدو عليه فى وضعه الطبيعى !**

وقد تكشفت هذه « الواقعية الفذة » ـ بشكل أذهل الجميع ـ فى لوحة « الآنسات دافنيون » ، التى رسمها بيكاسو وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، والتى انطلقت فى عالم الفن كالقنبلة ، كاشفة عن قواعد جديدة للجمال اثارت جدلا عظيما ، ومعلنة عن انقلاب فى تاريخ القيم الجمالية ، وعن فترة جديدة فى الفن .

الاشكال الهندسية فى الرسم

• **ويقول** الناقد الفنى « ألفريد بار » فى كتابه : « بيكاسو : خمسون عاما من فنه » ان من الممكن القول بأن لوحة « الآنسات دافنيون » ، كانت أول صورة تكعيبية ، أى رسمت بطريقة المكعبات التى ابتدعها بيكاسو ، والتى تقسم الاشكال الطبيعية ـ حية كانت أو جامدة ـ الى شكل مؤلف من مستويات متغيرة ، منحرف بعضها عن بعض ، شبه

مبهمة ، مضغوطة جميعا فى فراغ لا عمق له .. وهذا هو أبسط تعبير لتقريب نظرية المكعبات الى ذهن القارىء العادى !

وهكذا أجمع النقاد على أن لوحة ((الآنسات دافنيون)) تمثل فترة انتقالية فى فن الرسم .. فهى ميدان محاولة وتجربة ، ولكنها — فى الوقت ذاته — ((عمل متين، جبار، ذو قوة دافعة لا تقاوم ، فى مضمار الفن الاوربى فى العصر الحاضر)) .

وكان الفنان ((**سيزان**)) قد أوحى بأن المناظر والاشكال العادية تبدو كما لو كانت مؤلفة من أشكال مخروطية واسطوانية .. فأضاف ((بيكاسو)) — وصديقه الرسام ((براك)) — الى ذلك انها تتألف كذلك من مكعبات . وراحا يقومان بمحاولات جريئة فى تطبيق هذا الرأى . ولم يطل بهما الزمن حتى أضافا اليها مثلثات ومنشورات ، وكافة الاشكال الهندسية ذات الزوايا ، التى تجعل من الرسم أشكالا هندسية .

الجراحة ناجحة .. ولكن المريض مات

• **وبهذا** اتجه بيكاسو الى ميدان جديد فى فن الرسم ، يهدف الى ملء سطح المنظر بمجموعات من الاشكال الهندسية ذات الاحجام . **فكان يحلل مايراه ، ثم يعيد تركيبه بعين الخيال ، غير عابىء بالشكل الطبيعى أو المادى .. وراح يروض عينه على أن ترى الشكل المنظور من عدة جوانب فى وقت واحد** ، فهو لا يقتصر على نقل صورة المنظور الذى أمامه ، وانما هو يحاول أن يترجمه الى ما تراه بصيرته وخياله كفنان .. بحيث يصبح الشكل المرسوم تعبيرا قائما بذاته ، مستقلا عن الجسم المادى المنظور . أى انه يرسم كيان الشكل لا سطحه .

ولم يقتصر بيكاسو فى محاولاته على تعديل أشكال الاجسام ، بل انه نبذ ألوانه القديمة المعبرة ، واقتصر على ألوان جافة مثل الرمادى الجامد ، والبنى القاتم أو الخابى .. وأخذ يمعن فى محاولة انتزاع اللب ، واستخلاص الهيكل الاساسى من غمرة التفصيلات والحواشى التى لا داعى لها .

على انه كان كالطبيب الذى يجرى تجارب فى التشريح . **فان العمليات الجراحية التى يجريها قد تكون ناجحة فى حد ذاتها ، ولكن الجسم الذى تجرى عليه كثيرا ما يفقد الحياة ، فلا يعود له بقاء .** وهكذا فان الاشكال التى راح يرسمها بيكاسو كثيرا ما كانت تفقد وجودها تحت ما كان ينقلها به من خطوط ومستويات أفقية ورأسيه ، فتصبح فكرة مبهمة ، أو هدفا تائها وسط أشكال هندسية متباينة ، بعضها فوق بعض ..

أهو اجتهاد فنى .. أو جنون ؟

• **هل** فهمت شيئا عن نظرية « بيكاسو » بعد ؟ .. لا داعى للانكار ، فكثيرون هم الذين لم يفهموها ، ولم يستسيغوها ، ولم يستطيعوا أن يخرجوا من اللوحات التى طبقها عليها بشىء ! ولكن « بيكاسو » يدافع عن النظرية بقوله : « انها لا تختلف فى شىء عن أية مدرسة أخرى للرسم ، فان المبادىء والعناصر واحدة فى الجميع . واذا كانت نظرية المكعبات قد ظلت طويلا مستعصية على الفهم – حتى انه لا يزال ثمة اناس لا يستطيعون فهمها الى اليوم – فليست لذلك أية قيمة .. **انني لا أقرأ اللغة الانجليزية ، ومن ثم فان أى كتاب بهذه اللغة يعتبر طلسما غامضا لا معنى له فى**

نظرى .. وهكذا الشأن فى نظرية المكعبات ، وكل ما هنالك هو اننـا حرصـنا على أن تظل أعيننا مفتـوحة ـ وكذلك عقولنا ـ على كل مايحيط بنا » .

ولم يكد «بيكاسو» يختتم العقد الثانى من عمره ، حتى كان قد حير ناقديه وجعل آراءهم تتضارب بشأنه وشأن نظريته !

على أنه لم يقتصر على نظرية المكعبات ، بل مضى فى تجارب تبدو أكثر مغالاة وتمردا على الاساليب التقليدية فى الفن . فعمد فترة من الزمن الى الملصقات ، فكان يلصق أشـكالا مادية على سطوح رسومه ، ويرسم ويوزع الالوان فوقهـا وحولها ، وكأنما هو يبغى أن يثبت أن من الممكن استخلاص الجمال من أبسط المواد العادية . **وعلى هذا راح يلصق على رسـومه قصاصات من ورق الصحف ، وقطعا من الخيط ، ونتفا من القماش ، وأشكالا من الرمل والزجاج والخشب ، وورقة ممـزقة من ((نوتة)) موسيقية ، وقطعة من الفحم النباتى .. بل انه راح ينثر ـ الى جانب ذلك ـ بقعا من الحبر والزيت !** .. ونظريته فى ذلك انه يمزج واقعية المادة العادية ، بغرابة ما لا يمت الى الواقع ـ او اللاواقعية ـ فينتـج من ذلك شذوذا ـ خياليا ـ عن المألوف العادى فى الواقع المادى !

يخلد ابنه فى صورة مهرج !

• **وكما** قلنا فى فقرة سابقة ، لم يعـرف عن رسام أنه بدل خططه وأساليبه فى الرسم كما فعل بيكاسو . فبعـد عشر سـنوات من الاغـراق فى أساليبه الهنـدسية ـ بين المكعبات ، والمثلثات ، والمنشورات ، وانصاف الدوائر ! ـ

ارتد ، وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره ، الى رسم صور



((ابن الفنان))

ابن « بيكاسو » كما رسمه والده فى لوحة خلد بها ابنه ، وخلد نفسه !

طبيعية واقعية لاصدقائه وزملائه . وبدأ فترة جديدة من حياته الفنية ، عرفت ب « المرحلة الكلاسيكية » ، امتدت الى أن سافر الى (روما) ، حيث وضع تصميمات الستار والمناظر والملابس لباليه استعراضى روسى ..

وهناك ، طابت له صحبة أفراد الفرقة الراقصة الروسية، فكان يحضر معهم فترات المران والتدريب، فى سرداب رومانى عتيق ، ويتمشى معهم تحت ضوء القمر ، ويصحبهم فى جولاتهم لمشاهدة معالم ايطاليا .

وانتهى به الامر الى ان تزوج راقصة فى الفرقة تدعى « أولجا كوكلوفا » وأنجب منها ابنا سماه « بول » ، خلده فى لوحتين رائعتين ، رسم احداهما والطفل فى الثالثة من عمره ـ وقد أظهره فى شكل مهرج ـ بينما رسم الثانية بعد عام ، وأظهره فيها فى شكل ماجن وقح !

عودته الى الاتجاه الكلاسيكى ، والانسانى :

• **فهل** تراه عرف الاستقرار بعد أن أصبح زوجا وأبا ؟

لا ، فقد كانت نزعته الفنية المتمردة على المألوف ، أقوى من ان يكبحها ، فظل يأبى أن يتقيد بأسلوب معين ، ولم يكف عن استخدام الاشكال المجردة المبهمة ، والمكعبات .. وما ان بلغ نهاية العقد الثالث من عمره ، حتى بدأ « المرحلة الكلاسيكية الجديدة » ، وكان قد استقر به المقام فى (الريفييرا) الفرنسية .. فأقبل على رسم الزهور والفاكهة فى أوضاع غريبة ، وأخذ يرسم الاجساد فيسبغ عليهانضارة والتفافا مغريين ، وكأنه لم ير فى حياته مكعبا من المكعبات

التى كان يرسمها قبل سنوات !

وردته نهاية الحرب العالمية الاولى – بما خلفته من بؤس وقلقلة فى المجتمع الانسانى – الى أسلوبه القديم المتناسق النسب ، والى الاهتمام الذى لازمه – فى بداية حياته – بالانسانية .. وكانت بعض اللوحات التى انتجها فى تلك الفترة تتسم بالرقة واللطف العاطفى ، مثل « ذات الرداء الابيض» .. بينما كان بعضها يتسم بالصلابة والجمود والسكون ، فهى تمثل الشكل وليس ماوراء الشكل ، وهى أقرب الى تطبيق القواعد المأثورة عنها الى التمشى معايحاءات أية تجربة ملهمة .. فكأنها كانت تماثيل **قدت من صخر ،** وليست رسوما **جرت بها ريشة !**

فى معمعة الحرب الاسبانية

• **وتحول** « بيكاسو » خلال الاثنى عشر عاما التالية الى اتجاهات جديدة .. فراح يصنع أشكالا من الاسلاك ، والحديد المطاوع ، والخشب .. وأخذ يكتب أشعارا « سيريالية » – أى فوق الواقع – وعكف على النحت فأخذ يصنع تماثيل ذات رؤوس هائلة ، وحيوانات مشوهةالاشكال بدرجة عجيبة .. وغرق فى فيض من الاشكال المجردة ، غير المحددة المعالم بخطوط واضحة ..

وكانت كل هذه الاتجاهات خليقة بأن تشى باضطراب نفسى عميق ، عنيف ، متمرد . حتى اذا قامت الحرب الاهلية فى أسبانيا – وهو فى أواسط العقد السادس من عمره – اذا به يخف الى وطنه ، وينحازالى صفوف الموالين للنظام الذى كان

قائما .. **ومع انه كان قد أصبح فرنسيا أكثر منه أسبانيا ـ لطول مقامه فى فرنسا ـ وبالرغم من انه لم يحفل يوما بالسياسة ، الا أن محنة بلاده ردته اسبانيا متعلقا بوطنه ، مجاهدا فى سبيله ..** وما لبث أن أصبح من غلاة المجاهدين فى صفوف الحكومة الجمهورية ـ التى قامت فى أعقاب نزول الملك الفونسو عن العرش ـ ضد جبروت العصابات الثورية التى كان « فرانكو » يقودها ، والتى امعنت فى البطش والطغيان .

وخلال تلك المحنة الوطنية أظهر « بيكاسو » أنه كان من أبرع من حذقوا أساليب الدعاية ، كما كان ذا دور رئيسى فى العمل على انقاذ الكنوز الفنية التى كانت بالمتاحف الاسبانية .

اللوحة التى هاجم بها وحشية الحروب ..

• **وفى** معمعة الحرب ، بدأ يتجه بالفن اتجاها جديدا ـ بالنسبة اليه ، على الاقل ـ فراح يقول : « ان الرسم لم يخلق لكى يزين الدور والجدران ، وانما هو أداة من أدوات الحرب ، تصلح للهجوم على العدو ، وللدفاع ضده .. وضد الوحشية ، والظلام » . وعندما أخذت الطائرات النازية تعاون القوات الفاشية ، وأغارت يوما على بلدة (جويرنيكا) الوادعة ـ فى اقليم (الباسك) ـ فمحتها بالقنابل ، بدأ « بيكاسو » لوحة تعتبر من أكثر رسومه تعبيرا .. **فعلى لوحة هائلة ـ مساحتها ثلاثمائة قدم مربعة ـ راح يرسم الاحتجاج الصارخ على القسوة الوحشية التى تتسم بها الحروب جميعا ، على السواء .**

وكان يقول وهو عاكف على الرسم : « ان الصراع الاسبانى

جهاد ضد كل عدوان على الناس ، وعلى الحرية .. ان حياتى بأسرها ـ كفنان ـ لم تكن سوى جهاد مستمر ضد الرجعية ، وضد موت الفن !.»

وتجلت غضبته ضد الوحشية والحرب ، فى صور بلدة (جويرنيكا) ، التى كانت أقرب الى الرموز منها الى أية أشكال طبيعية . **فقد ضمت لوحته أشكالا لوحوش جبارة ، وأجساد بشرية مهشمة ، وثيران مشوهة ، وجياد مذعورة . وقد رسمت كلها باللونين الرمادى والاسود ، الى جانب الابيض ..** ولم يكن كل منها ـ فى حد ذاته ـ يعبر عن شىء واضح ، ولكنها ـ فى مجموعها ـ تعبر عن الفظاعة والهول . حتى لقد وصفها النقاد ـ عندما عرضت فى سوق باريس الدولية ، فى سنة ١٩٣٧ ـ بأنها تجمع بين جميع الاتجاهات والمدارس الفنية والنفسية التى تأثر بها الرسام فى ماضيه . وقال الشاعر الانجليزى هربرت ريد عنها ، انها « نصب تذكارى لخيبة الرجاء ، والقنوط ، والدمار .. وان الرموزالتى رسمها بيكاسو لاشبه بالشخصيات الرمزية التى خلقها هوميروس ، ودانتى ، وسيرفانتس ! »

« الانف » .. فى مكان « الاذن » !

• **ولقد** أثارت هذه اللوحة العملاقة ضجة وتضاربا فى الآراء ، ولكن أغلبية النقاد العالميين أجمعوا على تمجيدها ، وقالوا ـ دفاعا عنها ـ انها أشبه بقصيدة ربما كتبت بلغة معقدة لا يتسنى للرجل العادى فهمها لاول مرة ، ولكن الصرخة التى تنطلق بها توحى بالهول والدمار، مما يحمله على أن يعاود

قراءتها ، ويتعمق معانيها ، فسرعان ما يفهمها على حقيقتها !

واتسمت لوحات بيكاسو - بعد سنة ١٩٣٧ - بهم ، وأسى ، وبلبلة يائسة ، وأشكال شيطانية مروعة ، ومناظر مشوهة مرعبة ، **وكأنما كان الرسام يعانى أزمة نفسية فظيعة ، من جراء ما رآه من بطش بنى البشر بعضهم ببعض، ومن اتجاه العالم نحو الخراب** . ولم تعد لوحاته تعنى بالشكل الظاهرى ، وكأنما كان « بيكاسو » يحاول أن ينفذ الى ما وراء الوجه ، ليرسم ما فى العقل من بشاعة وحب للتخريب .. وكثيرا ما كان - فى سبيل ابراز هذه الفكرة - يعبث بمواقع قسمات الوجه ، كأن يمزج الوجه الكامل ، بالوجه كما يبين من الجانب - (البروفيل) - أو يضع أنفا ضخما فى مكان الاذن ! .. الخ .. ولكن الجمع بين مظهرى الوجه فى وضعين مختلفين ، كان يرمى الى غرض معين . فقد كان بيكاسو يرجو أن يعبر عن الشخص الحى، المتحرك ، فلا يرسم الشكل جامدا ، ساكنا .. وأن يوحى بهذه الحركة الحية عن طريق معالم الوجه وقسماته ، وعن طريق الجمع بين عدد من نواحى الحركة ومظاهرها فى وقت واحد . فكأن المنظر الذى يرسمه أشبه بذاك الذى تلم به العين عندما تلم بالشىء من عدة جوانب ، وتغوص فى أعماقه فتستشف حقيقته .. فى آن واحد !

حبيبة تصغره باثنين وأربعين عاما !

• **وكان** بيكاسو فى (باريس) عندما قامت الحرب العالمية الثانية ، واحتل النازيون العاصمة الباريسية .. ومع انه كان يعرف أن النازيين قضوا على فنه بأنه « انحلال » ، وكانوا



« رأس فتاة »

لوحة من رسوم « بيكاسو » تعبر عن أحد مذاهبه التعبيرية التى ابتكرها فى فنه ..

ناقمين عليه ـ بحيث كانت حياته مهددة ـ الا انه أبى أن ينصت الى نصح المشفقين عليه ، وتشبث بالبقاء فى المدينة .. فظل بها طيلة فترة الاحتلال النازى ، رافضا كل تعامل أو تعاون مع الاعداء .. **بل انه ذهب فى الجرأة والتحدى الى درجة انه راح يوزع نسخا مطبوعة من لوحته ((جويرنيكا)) التى سجل فيها احتجاجه على وحشية الطائرات النازية !**

وبعد تحرر فرنسا ، رزق ((بيكاسو)) بولدين من امرأة كانت أصغر منه سنا باثنين وأربعين عاما ! .. وبرح باريس اذ ذاك فقط ـ بعد أن جلاعنها الغزاة ـ فنزح الى (فالاورى) ، فى (الريفييرا) الفرنسية .

ومرة أخرى ، تعرض فنه لتطور جديد ، فاذا رسومه وألوانه تنم عن عاطفة جديدة ، وعن شعور بالارتياح ، بل عن قلب خلا من الشجن والهموم !

الفن فى صناعة الخزف !

• **وظلت** ملكة الابتكار تحفزه وتدفعه ، فاذا به يسعى الى ادخال تجديدات على فن الطباعة على الحجر ، كما راح يجدد فى صناعة الخزف والرسم عليه ، معالجا فى ذلك الطين الذى يصنع منه الخزف ، والالوان المستعملة لصباغته . وأجاد فى تشكيل الطين وفى اختيار الاصباغ ، وفى عمل أوعية وأباريق وأصص وصحاف من الخزف ، متعددة الاشكال .. **فمن** الاباريق ما صنعه على شكل طائر ، ومن ((الفاسات)) ما صنعه على شكل امرأة ! .. **وهكذا** .

واذ بلغ ((بيكاسو)) السبعين من عمره ، لم تفارقه هواية

الابتكار والتجديد . والذى يرى لوحة « منظر للبحر الابيض المتوسط » — التى رسمها فى سنة ١٩٥٢ — لا يتمالك أن يلمس انه كان أكثر جرأة فى اختيار الالوان والاشكال والتركيبات فيها ، منه فى أية لوحة أخرى .. **وقد نظم فى سنة ١٩٥٣ معرضا فى متحف الفن الحديث بروما ، فاذا بين المعروضات خمسون لوحة لم يشهدها أحد من قبل . وقد ملأت لوحاته أربع عشرة غرفة فى دار المتحف !**

ويرى كثير من ناقدى « بيكاسو » أن تقلبه المستمر بين الاساليب ، دليل على افتقاده الغاية الجدية ، وان انصرافه الى الاهتمام بالاسلوب قد جعل لوحاته تفقد المعنى .. حتى لقد قال الناقد توماس كرافن : « انه لا يهتم بالحياة ، وانما كل اهتمامه مركز فى الفن .. فى التركيب الآلى للصور .. وان فنه ليعتبر كاملا خالصا ، لانه خالص فعلا من الشعور الانسانى بالرضى والقناعة .. وهو « كلاسيك » ، لانه ميت ، لا حياة فيه » !

دفاع عن فنه ..

• **على** أن بيكاسو لم يحاول قط أن يرد على ناقديه ، وان أظهر فى بعض الكتابات القليلة التى خطها بقلمه ، وفيما كتبه عن لوحة « جويرنيكا » — بوجه خاص — أن الفنانين الذين يعيشون على قيم روحية ، لا يملكون أن يتجاهلوا مظاهر الصراع التى تدور حولهم ، والحروب التى تتعرض فيها أسمى قيم الانسانية والحضارة للخطر .

وهو يرى أن الشكل الذى يظهر به الفنان خواطره ، ذو وظيفة أعمق مما يخطر بالبال . فالفن عامل يسعى الى اقرار

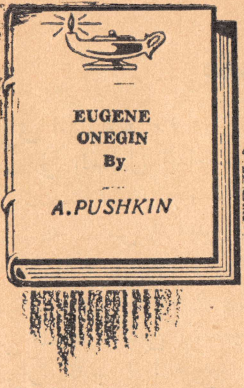
التوازن والتناسق بين مشاعر الفنان وانفعالاته العاطفية ..
« ولو أن الموضوعات التى أردت أن أعبر عنها برسمى ، تراءت لى على أشكال تخالف ما رسمتها عليه ، لما ترددت فى اتباع تلك الاشكال .. ذلك لاننى ما وجدت بنفسى شيئا أحب أن أقوله ، الا قلته بالشكل الذى شعرت أن لا بد من أن يقال به . والبواعث المتباينة تحتاج - بطبيعتها - الى اساليب متباينة فى التعبير . ولكن تباين الاساليب لا يعنى تطورا أو تقدما ، وانما هو تهيئة للفكرة التى يريد المرء أن يعبر عنها ، وهو وسيلة لهذا التعبير » ..

أى هؤلاء « بيكاسو » ؟

• **ولكن** هذا لم يقنع النقاد ، ولم يمنعهم عن المضى فى التضارب فى آرائهم عنه .. **فمنهم من يراه نبيا من أنبياء الرسم ، يحاول التعبير عما فى أعماق النفس واغوار الفكر .. ومنهم من يراه جامحا ، مشتطا ، متقلبا ، لا يستطيع ان يستقر على أسلوب ، وهو فى عنايته بالاسلوب الذى يظهر به فكرته ، يضيع هذه الفكرة ويفقدها معناها !** .. ومنهم من يقول انه يعمد الى الغرابة والشذوذ فى اساليبه ، ليستثير الاهتمام ويستلفت الانظار .. ومنهم من يقول انه انما يعمل من أجل الفن ، غير حافل بقواعد ولا تقاليد ، ولا برأى الناس فيه !

على أن الكل اجمعوا على انه لغز .. وعلى انه من أغرب مبتدعى الصور وأكثرهم بعدا عن المألوف .. فى تاريخ الفن كله !

فاى هؤلاء بيكاسو .. فى رأيك ؟



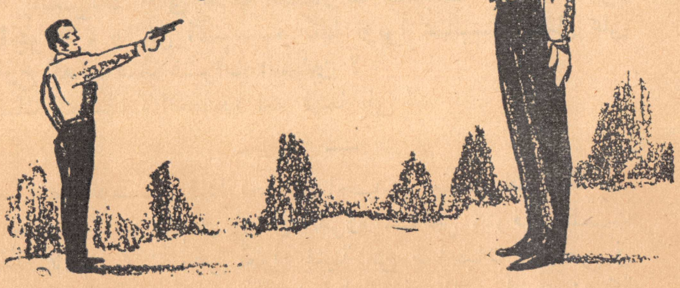


يوجين أونيجين

من روائع المسرح الغنائى

للشاعر الروسى الأشهر

الكسندر بوشكين



عرض وتلخيص : المحرر

هذه المأساة ..

عزيزى القارىء ..

• فى الفصل التاسع من ملحمة « دكتور جيفاجو » ، التى قدمت لك ترجمتها الكاملة فى مجلدين مزدوجين ــ خارج السلسلة ــ من « مطبوعات كتابى » ، أشار « باسترناك » الى مأساة « يوجين أونيجن » فى ثلاثة مواضع متلاحقة ، ضمن يوميات بطل الملحمة « يورى جيفاجو » .. ففى صفحة ٤٣٤ (من المجلد الثانى) كتب فى يومياته : « وهكذا قرأنا مرارا وتكرارا كتب « الحرب والسلام » لتولستوى ، و « يوجين أونيجن » ، وغيرها من روائع بوشكين .. »

وفى صفحة ٤٣٦ ، كتب مرة أخرى : « .. سنظل نعاود قراءة « يوجين أونيجن » الى ما لا نهاية .. »

وفى صفحة ٤٤٣ ، كتب مرة ثالثة : « ان الفصل السابع من « يوجين أونيجن » يصف بيت « أونيجن » وقد بدا موحشا لغيابه ، وقبر « لينسكى » على ضفة الغدير ، عند أسفل التل ، والبلبل ــ عاشق الربيع ــ يغنى طيلة الليل .. والوردة البرية تتفتح .. الخ »

فما هى هذه التراجيديا الخالدة لبوشكين ، التى أشاد بها « باسترناك » فى ثلاث اشارات متتابعة من « دكتور جيفاجو » ، والتى اقتبست منها أوبرا غنائية تمثل على مسارح العالم منذ عشرات السنين ؟

اليك قصتها ، ألخصها لك فيما يلى :

— ١ —

• **تبدأ** القصة فاذا نحن فى احدى أمسيات الخريف الدافئة ، ذات عام فى أوائل القرن الماضى ، وقد جلست « مدام لارينا » ــ وهى امرأة غنية من صاحبات الاراضى فى روسيا القديمة ــ فى حديقة منزلها الريفى الجميل ، منهمكة

فى تقشـير بعض الفاكهة .. ومن نوافذ البيت المفتـوحة صافحت سمعها أنغام أغنية عذبة تغنيها ابنتاها الجميلتـان « أولجا » و « تاتيانا » .. فامتلأ قلب الام وهى تصـغى اليهما بالذكريات الحلوة لايام شـبابها البـاكر ، حين كانت تتغنى مثلهما بنفس هذه الاغنية !

وأقبل رهط من القـرويين المرحين يحملون حزم الحنطة ويقدمونها الى مدام لارينا ، فقد كان اليوم آخر أيام الحصاد، ومن ثم جاءوا يضعون تحيتهم التقليـدية تحت قدمى ربة الضيعة المحبـوبة .. فاستقبلتهم هى بالتـرحيب والعطف الكريم ، ودعتهم كى يغنوا ويرقصوا أمامها ، ويتناولوا من المشروبات المنعشة التى أمرت بأن تعـد لهم .. فانخـرط الشبان والفتيات فى رقصة ريفية فوق أرض الحديقة وراحوا يغنون أغنية الحصاد المرحة ، رغم التعب الذى كانوا يعانونه بعد مجهود العمل طيلة اليوم .. فلم تـكد الفتاتان أولجـا وتاتيانا تسمعانهم حتى خرجتا الى الحديقة ووقفتا بجوار أمهما ترقبان الرقص والضحك والصخب بشغف ملحوظ ..

وكانت الفتاتان رغم جمـال كليهما تختلفان الواحـدة عن الاخرى أكبر الاختلاف : فالكبرى ـ أولجا ـ مرحة طائشة تحب اللهو والصخب .. والثانية ـ تاتيانا ـ حالمة ، ولهى ، منطوية على نفسها ، لاتأبه كثيرا للهو الشباب المألوف ، بل تفضل عليه أن تقرأ كتابا فى عزلتها .. أو تحلم فى يقظتها !

وحين فرغ القرويون من رقصتهم ، اصطفوا من جـديد تأهبا للانصراف من حضرة سيدتهم المضـيافة .. وبعـد لحظات من انصرافهم ، وقفت أمام الباب عربة فاخرة هبط

منها شابان من نبلاء المنطقة المجاورة ، احدهما « فلاديمير لينسكى» خطيب أولجا ، والآخر صديقه « يوجين اونيجن »، الذى كان ما يزال مجهولا من جانب مدام لاريتا وابنتيها ، رغم امتلاكه أرضا فى نفس المنطقة ..

ولم تكد تاتيانا الخجول الحيية تلمح الشاب الغريب حتى تحركت تريد الانسحاب من المكان ، لولا ان امها احتجزتها.. وبعدبرهة أقبل لينسكى يحيى النساء الثلاث ويقدم لهن صديقه.

وكان أونيجن شابا أنيقا ذا شخصية جذابة وخبرة بالحياة ، فلم تكد تاتيانا ترمقه بنظراتها المختلسة ، فى خجل، حتى جذبها مظهره ، فأحست أنه الصورة الحية لفتى أحلامها ! .. وشعر أونيجن بدوره بميل نحو الفتاة الهادئة المنطوية التى تلائم مزاجه اكثر من أختها الضاحكة الصاخبة.. وهكذا لم تمض برهة حتى اشتبك الاثنان فى الحديث ، ثم انصرفا عن المكان ليقوما بجولة فى أرجاء الحديقة .. تاركين لينسكى وخطيبته يشيدان قصور الامانى العذبه فى خلوة كاملة ..

وحين ارتفع صوت الام تنادى الفريقين الى داخل البيت لتناول العشاء ، لبى الخطيبان دعوتها أولا ، **ثم مرقت تاتيانا وأونيجن من ظلام الحديقة فى أعقابهما وهما منهمكان فى الحديث ما يزالان .. وكانت تاتيانا ــ برغم خجلها الفطرى ــ قد وجدت متعة فى رفقة يوجين ، الذى فتنها بشخصيته الى أقصى حد ، وان كان حديثه قد أظهره فى صورة الساخر الذى مل الحياة وكفر بأخلاق البشر ..**

وهكذا رقص قلب تاتيانا بين ضلوعها منتشيا بثمل غريب لا يقاوم ، وازدادت عاطفتها المتأججة حدة وعنفا كلما

تقدم المساء ، فلما أوت الى مخدعها آخر الامر كان انفعالها أشد وأقوى من ان تستطيع قمعه ! .. وأحست مربيتها العجوز « فيلبينا » بما يعتمل فى أعماق العذراء الغريرة ، فحاولت أن تهدىء من انفعالها جهد طاقتها ، لكن مهمتها كانت أعسر مما حسبت .. بل لقد أصرت الفتاة على أن تروى لها فيلبينا تجاربها الغرامية الخاصة ، وأبت ان تحول أفكارها عن هذا الموضوع الشائق ! .. ورغم ذلك فعند ما رضخت المربية العجوز لالحاح تاتيانا ، لم تصغ هذه الى قصتها الا لحظات ، ثم شردت فى وديانها الخاصة وراء عواطفها المتضاربة ، حتى فرغت فيليبينا من روايتها فطلبت اليها الفتاة أن تحضر لها أدوات الكتابة ثم تتركها لشأنها .. !

وفعلت المربية ماطلبته منها تاتيانا ، ثم طبعت على جبينها فى حنان قبلة المساء وغادرت الغرفة ، وهى تأمل أن يقوى النعاس والاحلام على اعادة الفتاة الغريرة الى هدوئها المألوف فى الصباح ..

لكن النعاس كان أبعد الامور عن ذهن تاتيانا المبلبل .. فانها حين عجزت عن قمع عاطفتها المضطربة ، اعتزمت أن تكتب خطابا الى يوجين أونيجن ، تبوح له فيه بحبها العميق الذى باتت تكنه له .. وتسأله أن يمنحها الفرصة كى تلقاه على انفراد فى الارض المجاورة فى اليوم التالى ! .. وقد ظلت المسكينة وقتا طويلا — اثناء كتابة الخطاب — نهبا للافكار المتضاربة والصراع العنيف العقيم ، بين حياء العذراء واجفالها الفطرى ، وبين حبها الوليد وشوقها القوى الى أن

يبادلها الشاب اياه ! .. لكن عاطفتها تغلبت فى النهاية على شتى مشاعرها الاخرى ، فتناولت القلم وشرعت تكتب ..

ولكنها ـ حتى بعد أن قر قرارها على المصارحة ـ لم تلبث ان تبينت ان صياغة أفكارها المحمومة على الورق ليست بالمهمة السهلة ، وانما هى مهمة عسيرة جدا .. فمزقت أكثر من ورقة وبذلت أكثر من محاولة ، حتى تم لها ما أرادت..

.. والليل يزحف على مهل ، وتاتيانا غير ملقية بالا الى انصرام ساعاته.. حتى بدت فى الافق تباشير الفجر ، وعندئذ فقط تنبهت الحالمة ، فختمت الخطاب أخيرا ، ووضعته بيد مرتجفة فى ظرف معد لارساله ..

وكان الخطاب صورة دقيقة لنزعة الفتاة الفطرية ، ينضح كل سطر منه بالسذاجة العذبة التى أوحت بكتابته .. بل كان بمثابة تدفق غير متكلف لطبيعة كريمة سمحة .. اما عمق وعنف العاطفة التى وشى بها فقد كان برهانا على قيمة الهبة التى تجود بها صاحبته : القلب النقى لعذراء !

وعندما أقبلت فيلبينا لتوقظ الفتاة فى البكور ، وجدتها ما تزال جالسة الى النافذة المفتوحة .. وتوسلت اليها تاتيانا ان تتكفل بايصال الخطاب الى يوجين دون ابطاء .. فترددت المربية فى البداية ، وعنفتها على قضائها الليل باكمله ساهرة على هذا النحو ، لكنها حين أدركت ان الصبية ما تزال تعانى انفعال الامس ، لم تجد بدا من أن تجاريها .. فأخذت الخطاب واعدة بتسليمه الى صاحبه فورا ..

لكن تاتيانا حين انفردت بنفسها دفنت وجهها بين راحتيها

وقد أدركها شيء من الشعور بالندم على ارسال الخطاب ، والتساؤل عما اذا كان يوجين سوف يمنحها اللقاء الذى طلبته ؟ .. فاذا هى تارة تأمل أن يقبل دعوتها الحارة ، وتارة تصلى من أجل رفضها !

— ٢ —

• **وتقدم** النهار .. واقترب الموعد الذى ضربته ليوجين .. فحزمت شجاعتها واتجهت الى مكان اللقاء .. يتناهب قلبها الشك والشوق ، وترتعد أوصالها رعبا من نتيجة المقابلة ، وخوفا من أن يقابل حبها بالسخرية والصد .. وان ملأ قلبها فى الوقت ذاته خوف مماثل خجول من أن يقابل حبها بالوصال !

.. فلما أقبل أونيجن فى الموعد المرتقب ، تبخرت شجاعة الفتاة الضئيلة المدخرة ، فى مثل طرفة العين .. وتركتها ترتعش في حضرة الرجل الذى أحبته بكل ذلك العنف ، بحيث لو لم يطلب اليها فى لهجته الآمرة أن تبقى ، لكانت قنعت من الغنيمة بالفرار !

.. واقترب الشاب من الفتاة المنفعلة ، قائلا انه قد استلم رسالتها ، وقرأها بامعان .. وما دامت قد اختارت أن تكون صريحة معه ، فليكن هو بدوره صريحا معها ..

ثم مضى فى حديثه فاعترف لها ـ فى نبرات خالية من الحرارة ، وان خالطها الاسف ـ بأنه قد خبر الحياة حتى ملها ، فلم يعد فى حال تسمح له بأن يتقبل منها هذا الحب النقى الناشيء الذى تعرضه عليه .. فضلا عن انه ليس

بالشخص الذى يستحق مثل هذه الهبة الكريمة ، ولا هو بالذى يملك أن يقدم اليهامقابلا لهذه الهبة أو بديلا !

أنصتت تاتانيا وهى ترتجف الى هذه العبارات الباردة الصريحة ، فأحست كأن كل عبارة منها هى طعنة تسدد الى قلبها ... وتملكها شعور قوى بالعار والخجل ، سحقها سحقا !

أما اونيجن ، فرغم اسفهمن أجل الالم الذى جرع الفتاة كأسه المريرة ، والخيبة التى أصاب بها قلبها الحالم .. فقد رجاها فى لهجة أكثر تأنيبا من ذى قبل ، ان تقمع مشاعرها وتكون أكثر تحفظافى المستقبل ، خشية ان تجود بعاطفتها على رجل يكون أقل منه التزاما لحكم ضميره ، فيقابل اندفاعها باستهتار ، وعدم مبالاة !

ثم تناول يوجين يد الفتاة ، وقادها فى رفق وملاطفة الى بيتها !



« .. أنصتت تاتيانا وهى ترتجف الى هذه العبارات .. »

— ٣ —

• **وانقضت** أسابيع ..

وذات مساء أقامت مدام لارينا سهرة راقصة احتفالا بعيد ميلاد تاتيانا «الثامن عشر» .. وكان بين من دعتهم «لينسكى» وصديقه يوجين أونيجن . ورغم روعة الحفلة وتعدد وسائل اللهو فيها ، وازدحامها بصفوة منتقاة من علية القوم فقد ضاق يوجين صدرا بها ، وان قضى أكثر وقته خلالها بصحبة تاتيانا ، التى كانت طبيعتها الحالمة ما تزال تستميله اليها .. أما الفتاة فقد ظلت طيلة الوقت صامتة ، تخفى قلقها المكتوم ، حتى تبين هو حيرتها وحرج موقفها ، فتركها لافكارها !

لكن شعوره بالمضايقة تزايد ، الى حد أحنقه على صديقه لينسكى الذى أغراه بحضور الحفلة .. فلما سنحت له فرصة لشفاء غليله من صاحبه سارع بانتهازها ... فقد لمح خطيبة لينسكى الحسناء الضاحكة « أولجا » بالقرب منه ، فدعاها لمراقصته عدة رقصات متتالية ، ومن بينها رقصة نصف الليل التى كانت قد وعدت بها خطيبها !

وصادفت الدعوة هوى من نفس المعابثة الجريئة بطبعها ، فقبلتها مرحبة .. الامر الذى ملأ قلب خطيبها استياء وغيرة ، سيما وانه كان يخصها بحبه النارى الذى لا يقبل أن يقاسمه اياه أى شريك !

وهكذا جعل لينسكى يرقب ـ واجما ـ خطيبته وصديقه وهما يروغان بين الكتل المتراصة من أجسام الراقصين ، بل ويلحظ بغضب متزايد تلك النظرات الماكرة التى جعلت اولجا

ترمق بها مراقصها الوسيم وهى تعابثه .. فلما انتهت الرقصة عجز عن مغالبة شعور الحقد الذى اشتعل فى قلبه ، فاتهم صديقه يوجين أمام الملأ بأنه يحاول أن يسلبه حب خطيبته .. ثم تحداه علانية أن يبارزه فى اليوم التالى !

وقد حاول أونيجن فى البداية أن يحمل الامر على محمل المزاح ، مؤكدا انه لم يفكر البتة فى الاعتداء على كرامة صديقه أو شرفه .. أما اولجا ، التى ذعرت وأدركها الندم على تصرفها المستهتر الذى يوشك أن يؤدى الى اخطر النتائج ، فقد توسلت الى خطيبها بدورها أن يهدىء من ثائرته ويعتبر الامر كأن لم يكن ..

لكن غيرة لينسكى الحمقاء لا تخضع لحكم العقل ، فيتمادى فى صب جام غضبه واهاناته على أونيجن .. الى الحد الذى يخرج هذا عن طوره ويفقده السيطرة على نفسه فيعلن غاضبا أنه قبل التحدى والمبارزة !

وأمام هذه النتيجة التعسة ، يستولى على المدعوين الانزعاج والذعر ، فيشرعون فى الانصراف جماعات .. وهكذا ينفض المرقص الذى بدا بهيجا ، فى جو من الاضطراب والكآبة ..

وفى الصباح الباكر من اليوم التالى يلتقى لينسكى ويوجين مع شهودهما فى بقعة منعزلة من المنطقة .. وهناك تتم المبارزة ، بعد اتخاذ اجراءات الفروسية التقليدية ، وقد أحس كلا الصديقين بالاسف على مصير الصداقة الطويلة السعيدة التى ختمت على هذا النحو الرهيب .. بل ود كلاهما لو نطق بالعبارة التى ترضى كرامة صديقه وتفض

النزاع .. لكن الكبرياء أخرس لسانيهما ... فلما أعطيت الاشارة ، رفع كلاهما غدارته .. وأطلق النار بغير ابطاء !

وفى اللحظة التالية سقط لينسكى على الارض بلا حراك ، فلما جرى نحوه يوجين – الذى لم يمس بسوء – مع اتباعه وشهوده ، ورفع رأس صديقه بين ذراعيه ، تبين والفزع يقبض قلبه ، ان الشاب ذا الطبع النارى قد .. مات !

ملأ الاسى قلبه ، وفاض .. واستبد به الندم والحزن وتبكيت الضمير .. وتحت ضغط القلق النفسى ، والتعاسة المدمرة ، غادر اونيجن الاقليم فورا .. وعاش يتخبط ويتنقل من قطر الى قطر ، بضع سنوات ، دون أن يستقر له قرار فى اى منها ، محاولا أن يغرق فى التجوال همه المقيم ، وذكرياته التى تملأ رأسه وتطارده كالاشباح ..

— ٤ —

• **ولكن** لا تغيير الجو والمكان ، ولا المغامرات الفاجرة المتنوعة ، تفلح فى اعادة السكينة والراحة الى قلب يوجين !

.. وأخيرا ، وتحت تأثير الشوق الذى لا يقاوم الى العودة مرة أخرى الى مسرح المأساة ، يشد التعس رحاله الى وطنه .. فلا يبلغ العاصمة « سانت بطرسبرج » حتى يتقاطر عليه أصدقاؤه القدامى ويقنعوه بالبقاء بين ظهرانيهم بضعة أسابيع .. ثم يتلقى دعوة الى مرقص فاخر يقيمه نبيل رفيع المقام يدعى الامير « جريمين » ، فيقبلها تحت ضغط أصدقائه واغرائهم ..

.. وفى مساء يوم الحفلة يمضى اليها ، غير ملهوف ..

وفعلا يعجز جوها المرح الصاخب عن ادخال السرور والبهجة الى قلبه الممزق الكليل ..

وفيما هو يطوف بغرف القصر حائرا ، قلقا ، لا تفتأ ذكرى المبارزة المشؤومة تعاوده بكل دقائقها ، وتلح على خاطره .. وأفكاره المبلبلة تنحى عليه باللائمة ، وتطارده بالاتهام فى عنف وحدة ..

ثم يلحظ حركة غير عادية بين المدعوين ، وغمغمة وهمسات تفيض بالاعجاب .. فيوجه بصره الى حيث اتجهت أبصارهم ، واذا هى مركزة على حسناء رائعة ترتدى ثوبا فاخرا وتتحلى بثروة من الجواهر الثمينة الباهرة ، تمرق بين حلقات الضيوف فى خفة وجلال ، وتوزع ابتساماتها وتحياتها الوقورة عليهم برشاقة أخاذة ..

ولا يحتاج أونيجن الى أكثر من نظرة ثانية فاحصة ، كى يتبين فى الحسناء ربة الدار .. عذراء الماضى الحالمة ((تاتيانا)) !

لكن تاتيانا قد تغيرت .. لم تعد صبية حالمة ، سابحة فى خيالها ، وانما صارت امرأة ناضجة ، تفيض الفتنة من موطىء قدميها ، وتبدو كالملكة بين هذا الحشد من الحسان والغيد ..

نعم ، انها تاتيانا بعينها .. أخذت من بيتها الريفى الهادىء الى حيث أصبحت الزوجة المحبوبة للامير «جريمين» الذى يوليها ، رغم فارق السن الكبير بينهما ، حبا يقرب من العبادة .. ولا يدخر وسعا فى سبيل اسعادها وجعل حياتها فى كنفه موفورة الهناء والرفاهية ..

أما هى ، فبرغم عجزها عن أن تمنحه حبها وقلبها ،

صارت له مثال الزوجة المخلصة التى تكرس حياتها لراحته .. بل أخذت على عاتقها عبء مسئوليات مركزها الاجتماعى الجديد ، بكفاءة ووقار يتزايدان كل يوم !

.. ويرمق أونيجن تاتيانا بنظرة أخرى ، فيحس نحوها بميل مضاعف ، بعد أن نضج جمالها واكتملت لجسمها وعقلها أسباب الفتنة والجاذبية .. فينبض لها قلبه فجأة باحساس جديد غريب ، لعله النشوة .. أو لعله الشهوة ! .. ويتملكه ـ وهو الذى حسب عهده بالانفعالات العاطفية قد انتهى ـ فرح دافق يضاعف من سرعة نبضات قلبه ، ويتخطف كيانه كتيار كهربائي مباغت !

ويتزايد انفعاله حين يقبل عليه الامير « جريمين » فيقدم له زوجته الحسناء الرائعة فى زهو واعتزاز .. ورغم ان



« .. ويرمق أونيجن تاتيانا بنظرة أخرى ، فيحس نحوها بميل مضاعف .. »

تاتيانا تلقاه بفتور وهدوء ، أقرب الى البرود ، دون أن تكلف نفسها مشقة اخفاء صلة الجوار القديمة بينهما فان سمة العاطفة المكبوتة التى تبدو فى عينيها العميقتين الرقيقتين تشى فى وضوح بأن حبها له لم ينطفىء ، وانما هو جذوة كامنة تحت رماد السنين لا ينقصها غير الانفاس الحارة ، لكى تشعلها من جديد .. بل لعل هذا الحب القديم قد عمقت جذوره فى نفسها بعد نضوج أنوثتها !

وفيما هى تبتعد عنه ، متعلقة بذراع زوجها ، يحس أونيجن بقبضة الغيرة الحادة القوية تعصر قلبه بشدة ، ربما لاول مرة فى حياته !.. ويتبين انه يحب هذه المرأة بكل طاقة وجدانه !

ويعجز يوجين عن كظم عاطفته المتأججة العاتية ، فيعتزم أن يبوح لتاتيانا بحبه ، بأى ثمن ! .. وهكذا يمضى فيربض فى ركن قصى ، فى انتظار مرورها .. فلا تكاد تمر به حتى يبرز لها من مكمنه والانفعال يهز كيانه كله ، ويصارحها بعاطفته الجارفة ، مناشدا اياها أن تبادله اياها فيستردا سعادتهما التى فرط فيها بغبائه فى الماضى !

أما هى فتنتهز الفرصة كى تذكره فى مرارة بما صدر منه ، وكيف صد حبها القديم ناظرا الى الامر كنزوة طارئة من صبية حالمة ، بل وعمد الى تأنيبها بشدة على اندفاعها وراء عواطفها بدون روية ..

وتطعن عباراتها فؤاد يوجين ، فيجثو على ركبتيه ويتوسل اليها بانفعال متزايد أن تغفر له ما بدر منه ، وتمنحه حبها الذى يتوق الآن اليه أكثر من أية أمنية اخرى فى حياته !

وامام حرارة توسلاته ودموعه ، وعنف انفعاله ، تعجز المرأة عن الصمود .. وعن مواصلة التظاهر بالفتور نحوه .. فتعترف له فى انفعال مماثل بأن حبها له لم يزل كالعهد به قويا جارفا ، وتملأ قلبها فرحة محمومة لمجرد التفكير فى أن حبها المرفوض قد بلغ غايته أخيرا ، وصار متبادلا !

ويناشدها يوجين فى حمى نشوتهما الدافقة أن تفر معه ، كى يبدآ حياتهما السعيدة المشتركة فى كنف حبهما العظيم الذى لم يعد يجدى انكاره أو تجاهله .. لكن جرأة الفكرة ترد للمرأة صوابها الذى زلزلته المفاجأة ، فتنهى الى يوجين عزمها على البقاء وفية لزوجها ، مهما كلفها رفض توسلات حبيبها من ألم مرير !

ورغم ذلك لا يقنط يوجين ، فيواصل ابتهاله الحار الى حبيبته أن تطيع نداء قلبها الشاب .. لكن تاتيانا تصمد – وان يكن بصعوبة – للاغراء الذى يكلفها أكثر من طاقتها على الاحتمال ، فترفض فى حزم ما يعرضه عليها أونيجن ! .. وخوفا من أن يخور عزمها لو طال بقاؤها معه ، تعمد الى التخلص من قبضته وتهرع مبتعدة عنه ، بعد أن ترمقه بنظرة وداع أخيرة .. تمزقها الحسرات !

وعندئذ .. وقد ملأ اليأس قلب أونيجن ، وأيقن أن السعادة التى طالما اشتاق اليها قد حرمت عليه الى الابد .. يخرج مسدسه من جيبه ويسدده الى صدره !

وفى اللحظة التالية يسمع دوى رصاصة ، ويخر يوجين على الارض .. فاقد الحياة !

نحن فى ركب الأدب



ظهر فى المكتبة العربية

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب الذى نتناول فيه بالعرض بين الحين والآخر كتابا من الانتاج « العربى » الحديث ، قدمت لك فى اعداد سابقة :

أبو نواس : العقاد

الهوى والشباب: بشارة الخورى

هذا أو الطوفان : خالد محمد خالد

هؤلاء علمونى : سلامة موسى

حوار العباقرة : محمد بديع الشريف

محمد عبده : عثمان أمين

شهداء فى قبرص : ابراهيم موسى

سيكلوجية الضمير : محمد كامل النحاس

واليوم أقدم لك فى هذا الباب كتابا حديثا صدر أخيرا فى موضوع قل أن تناوله الكتاب أو المترجمون فى بلادنا العربية ، وهو « فن كتابة المسرحية » الذى تقرأه فى الصفحات التالية .



عرض وتلخيص : فرج جبران

هــذا الكتاب ..

خير ما كتب فى موضوعه .. منذ أرسطو !

• **من العجيب** أن رأى المـؤلف فى كتـابه « فن كتـابة المسرحية » (١) قد اتفق مع رأى المترجم ، فقد وصف المؤلف « لاجوس اجرى » ــ المجرى الاصل ــ كتابه بأنه خير ماكتب عن الموضوع فى أمريكا . **ولكن المترجم ، « دريني خشبة » ، زاد على ذلك فقال ان هذا الكتاب هو خير الكتب فى موضوعه منذ ارسطو الى اليوم !**

ويقول مؤلف الكتاب فى مقدمته أنه لم يكتب كتابه للمنشئين ومؤلفى المسرحيـات فقط ، ولكنه كتبه لعامة القراء كذلك **حتى اذا عرفوا الاداة الكتابية وما ينطوى عليه أى عمل أدبى من جهد مرهق ، وما يتجشمه الاديب من متاعب مضنية ، أصبح تقديرهم للآثار الادبية وتذوقهم لها تقديرا تلقائيـا ، أقرب الى الطبع ، لا أثر للكلفة فيه .**

ويضيف المؤلف أنه قصد بكتابه عرض طريقة جديدة من طرق الـكتابة الادبية بوجه عام ، وكتـابة المسرحية بوجه خاص . ومع مباهاة المؤلف بكتابه فهو يقول فى أحدالمواضع أنه لايخطر بباله أبدا ان هذا الكتاب قد جاء بالكلمة الاخيرة فى كتابة المسرحية ، اذ العكس هو الصحيح ، وان الانسـان حينما يقوم بشق طريق جديد قد يقع فى أخطاء كثيرة ، وانه سيأتى من بعده من يستقصون البحث أكثر منه ، ويتقدمون بمحاولة من محاولات الفن الكتابى الى صورة أكثر نضـوجا وأتم تبلورا .

---

(١) صـدر هذا الكتاب حديثا فى ٥٥٤ صفحة من القطع الـكبير ، عن **« مكتبة الانجـلو المصرية »** ، **بالاشـتراك مع « مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بالقاهرة »**

المقدمة المنطقية

• **أن** لكل شىء فكرة أو مقدمة صغرى كما يقولون فى علم المنطق ، وكل ثانية من الثوانى التى تتألف منها حياتنا لها مقدمتها الخاصة بها ، سواء شعرنا نحن بذلك أو لم نشعر به ، فى الوقت الذى يحدث فيه ذلك . وقد تكون هذه المقدمة بسيطة بالغة البساطة ــ كالتنفس مثلا ــ وقد تكون شيئا معقدا بالغ التعقيد ــ كقرار عاطفى حيوى له خطره على حياة الانسان ــ غير أنها مقدمة وكفى ..

ومقدمة كل ثانية من الثوانى الستين التى تتألف منها الدقيقة تعاون المقدمة الكبرى التى للدقيقة نفسها . كما ان مقدمة الدقيقه تعاون مقدمة الساعة .. ومقدمة الساعة تعاون مقدمة اليوم كله ، وهكذا . وعلى هذا النحو يكون لكل حياة تتألف من تلك الثوانى ، والدقائق ، والساعات ، والايام ، مقدمة منطقية .. أعنى فكرة أساسية تهدف اليها وتتوخاها ..

والشائع عند جميع الكتاب والمؤلفين أن كل مسرحية ينبغى أن تكون لها مقدمة منطقية ، أو فكرة أساسية .. ولاثبات ذلك ، نستعرض فيما يلى عددا من المسرحيات ، لنستخلص منها فكرتها الاساسية :

روميو وجولييت

• **تبدأ** هذه التمثيلية بصورة من صور الخصومة الشديدة بين أسرتين ، هما آل كابيوليت وآل مونتاجو .. ونعرف أن روميو ينتسب الى آل مونتاجو ، فى حين تنتسب جولييت الى أسرة كابيوليت . ويحب كل من روميو وجولييت صاحبه حبا شديدا ، ينسيهما العداوة التقليدية بين أسرتيهما . ويحاول آل كابيوليت اجبار جولييت على الزواج من كونت

باری ، لكنها تأبى أن يتم هذا الزواج .. وتذهب الى قس صالح من أصدقائها تلتمس عنده النصح ، فيشير عليها بأن تتناول جرعة من مخدر قوى فى الامسية التى يريد أهلها فيها ابرام عقد زواجها ، ومن شأن تلك الجرعة أن تجعلها تبدو وكأنها ميتة ، وذلك لمدة اثنتين وأربعين ساعة ، تعود بعدها الى يقظتها الطبيعية !

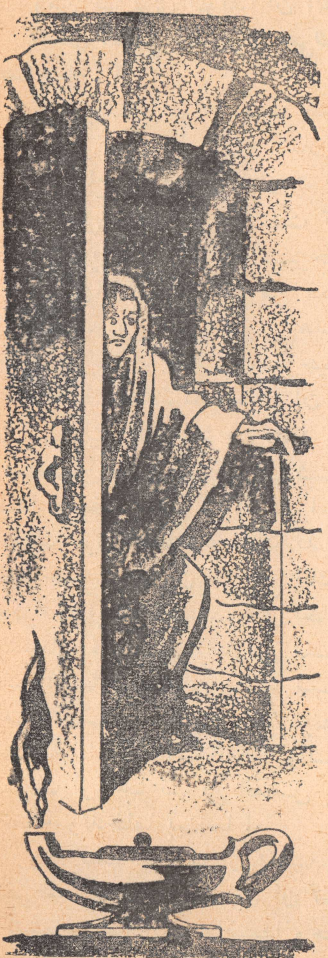
وتخضع جولييت لما يشير به القس ، ويحسبها كل من يراها بعد تناول المخدر أنها قد لقيت حتفها . وتكون هذه هى بداية المأساة المتلاحقة الحوادث : اذ يعتقد روميو أن جولييت قد ماتت حقيقة، فيتجرع السم ويموت الى جانبها . وحينما تستيقظ جولييت وتجده ميتا ، لا تتردد فى مشاركته هذا المصير هى أيضا !

وهذه المسرحية ، وان كانت تعالج موضوع الحب ، الا أن هذا الحب هو بلا شك حب عظيم . وآية ذلك أن هذين الحبيبين لم يقتصرا على تحديهما تلك الخصومة التقليدية بين أسرتيهما ، بل هما قد ضحيا بروحيهما ليلتقيا بين ذراعى الموت .. وعلى هذا فالمقدمة المنطقية ، أو فكرة الرواية الاساسية ، هى : **« ان الحب العظيم يتحدى كل شىء ، حتى الموت نفسه ! »**

الملك لير

• **لقد** أساء الملك اساءة فظيعة محزنة حين حصر ثقته فى ابنتيه جونوريل وريجان ، فلقد جردتاه من كل سلطاته وألحقتا به الهوان ، مما جعله يتجرع غصص الموت وهو مجنون مذهوب بعقله ، فمات عجوزا محقرا مهيض الجناح .

ومن ذلك يتضح أن المقدمة المنطقية لمأساة الملك لير أو فكرتها الاساسية هى : **« ان الثقة العمياء تؤدى بصاحبها الى الدمار ! »**



ماكبث

• **يقـرر** ماكبث وزوجتـه ليدى ماكبث – فى سـبيل تحقيق أطماعهما – قتل الملك دنكان . فيسـتأجر ماكبث بعض القتلة للقضـاء على بانكو الذى يرهبه ، وذلك توطيـدا لمركزه . ثم يضطر بعد ذلك الى ارتكاب الـكثير من جرائم القتل لكى يحوط نفسه بسياج من الامن والطمأنينـة فى المركز الذى وصل اليه بطريق الغدر والقتل . وينتهى الامـر بتنبه الاشراف والرعايا أنفسـهم الى جرائمه وثورتهم ضـده ثم القضاء عليه بالسيف والقتل ، تماما كما وصـل بهما الى العـرش . أما ليدى ماكبث فيغضى عليها الخـوف المخامر الذى لازمها فلم يرحمها ..

فما هى القوة الدافعـة فى هذه الرواية ؟

لا جدال فى أنها الطمع ، وأى نوع من الطمع ؟ انه الطمع الذى لا يرق ولا يرحم ، بدليـل ما سال على جوانبه من الدماء ..

ومن ثم يرى المؤلف أن الفكرة الاساسية فى ماكبث هى :

« ان الطمع الذى لا يعرف الرحمة ينتهى بالقضاء على صاحبه ! »

ولم يعتمد المؤلف فيما ضرب من أمثال على مسرحيات شكسبير وحدها ولكنه أشار الى مسرحيات أخرى ، مثل : « الاشباح » لابسن ، و « الطريق المسدود » لكنجسلى ، و « الظل والمادة » لفنسنت كارول .. الخ .. وهو ينصح كل من يريد أن يؤلف مسرحية فيقول له :

« ولهذا فلا بد لك من فكرة أساسية ، وهذه الفكرة الاساسية هى التى تتولى هدايتك الى الهدف المنشود الذى تريد الوصول اليه فى مسرحيتك »

ولكنه يستطرد فيقول ان هذا ليس معناه ان الكاتب لا يستطيع الشروع فى كتابة مسرحية مالم تكن لديه فكرة أساسية ، فان هناك طرقا شتى للوصول الى فكرة أساسية . فاذا لاحظت مثلا عددا كبيرا من الامور الشاذة الغريبة فى عمتك أو فى عمك ، فانك قد تشعر بأن فيهما مادة دسمة لمسرحية . الا أن الراجح انك لا تفكر فى المقدمة المنطقية أو فكرة روايتك الاساسية فى الحال . ان العم والعمة شخصيتان مثيرتان ، فلماذا لاتدرس سلوكهما وتراقب كل خطوة من خطواتهما ؟ انك أن فعلت فستنتهى الى أن العمة ، وان كانت امرأة مستمسكة بأهداب دينها ، الا أنها سيدة فضولية ، مغرمة باشاعة الشائعات والتدخل فى شؤون الغير ، ولعلك تعرف أزواجا كثيرين انفصل بعضهما عن بعض بسبب فضول العمة وتدخلها بينهما !

ولما كنت معتزما أن تكتب عنها مسرحية ، لان شخصيتها تغريك بالكتابة ، فلا بد أن تحاول اكتشاف كل ما يمكنك اكتشافه عن أنباء ماضيها وحاضرها . وفى اللحظة التى تبدأ

فيها رحلتك هذه الى اكتشاف حقائق حياة تلك المرأة ، تكون قد خطوت الخطوة الاولى فى سبيل الوصول الى فكرتك الاساسية ، سواء شعرت بذلك أم لم تشعر !

والمؤلف يوصى بألا يتخذ الكاتب المسرحى لمسرحيته فكرتين أساسيتين ، وألا تعرض للفشل الذريع ، وأربك نفسه وأربك المخرج والممثلين والمتفرجين جميعا معه !

الشخصية المسرحية

• **ويحدثنا** المؤلف بعد ذلك عن الشخصية المسرحية أو الروائية ، وهى فى نظره أهم شىء فى الرواية التمثيلية ، بل وأهم من عقدة الرواية ، وهو بذلك يخالف أرسطو ويخالف معظم الذين كتبوا عن أصول التأليف المسرحى . وهو يثبت أن الشخصية مصدر كل شىء فى المسرحية . والشخصية عنده تتكون من مقومات ثلاثة أولها : **الكيان الجسمانى** ـ ويقوم على الجنس الذى تنتسب اليه الشخصية ، ثم السن ، والطول ، والوزن ، ولون الشعر ، ولون العينين ، والجلد ، والقامة ، والمظهر ، والاناقة ، والصحة ، وصنوف الشذوذ ، والوراثة ، وما الى ذلك مما يتصل بحالة الانسان .. الخ

أما الكيان الثانى للشخصية فهو الكيان الاجتماعى ، ويقوم على الطبقة الاجتماعية ، ونوع العمل ، والتعليم ، والحياة المنزلية ، والدين ، والهيئة الاجتماعية التى تعيش فيها الشخصية ، والنشاط السياسى الذى تمارسه ، وألوان التسليات والهوايات والقراءات والعادات والاخوان .. الخ

والكيان الاخير للشخصية هو **الكيان النفسى** ، وهو عند المؤلف ثمرة الكيانين الاخيرين ، فأثرهما المشترك هو الذى يحيى فينا المطامع ، ويسبب هزيمتنا ، وخيبة آمالنا ، ويكون أمزجتنا وميولنا ومركبات النقص فينا . ومن هنا كانت النفسية جزءا متمما للكيان الاجتماعى والانسانى .

ومن هنا يحتم ((ايجرى)) ـ المؤلف ـ على الكاتب المسرحي أن يدرس شخصيات مسرحيته دراسة تشبه المعاشرة ، وأن يرسمها رسما يشمل هذه الابعاد الثلاثة ، داخل الخطوط العريضة التى حدد بها الفكرة الاساسية التى وضعها لمسرحيته .

ويلاحظ ان مسرحيات شكسبير العظيمة كلها مبنية على شخصياتها . ومن أهم هذه المسرحيات التى تقوم على الشخصية : ماكبث ، والملك لير ، وعطيل . وبالمثل مسرحيات ابسن كلها ، بل كذلك أيضا مسرحيات العباقرة من كتاب المسرح اليونانى ، فهى تدور حول الشخصية ، وتنبع منها بكل مافيها من أحداث . ومن أمثال ذلك : أوديب والكترا وأنتيجونى وميديا .

والمؤلف يوصى الكاتب المسرحى بضرورة الاستمرار فى تنمية شخصياته المسرحية وعدم الوقوف بها عند نقطة معينة . لان هذا الوقوف عن النمو ضد طبائع الاشياء ، وكل شخصية لابد لها أن تتطور من شيء الى شيء آخر ..

وعلى هذا ، كما يقول المؤلف ، فان أية شخصية ـ فى أية صورة من الصور الادبية ـ لاينتابها تغيير أساسى فى ذاتها ، هى شخصية رسمت رسما رديئا . بل ان الشخصية اذا لم يمكن أن تتغير فان أى موقف يضعها فيه الكاتب يكون موقفا غير حقيقى ولا واقعى . وهو يضرب الامثلة الرائعة من المسرحيات الخالدة على صحة مايقول ، دون أن يتقيد بالقديم أو الجديد .

ويقول ((ايجرى)) انه عندما يوفق المؤلف المسرحى الى مقدمته المنطقية الواضحة المعالم فانه يكون من أهون الاشياء عليه ان يجد صاحب الشخصية الذى يحمل عنه عبء تلك الشخصية .

وحينما يتخير كاتب المسرحية لنفسه فكرة أساسية تدور حول « ان الحب العظيم يتحدى كل شىء حتى الموت » — وهى مقدمة روميو وجولييت — فان المؤلف بطبيعة الامر سيفكر فى شخصية محب وحبيبته لديهما من الجرأة مايتحديان به التقاليد ، واعتراضات الآباء ، بل والموت نفسه !

البطل الاول فى المسرحية

• **والشخصية** المحورية أو الشخصية الرئيسية هى البطل الاول فى المسرحية ، ويجب بالضرورة أن تكون شخصية عدائية — خصيمة — لا تعرف المساومة أو أنصاف الحلول بل لا يستشعر قلبها رحمة . كما أن الشخصية المحورية قوة دافعة مسيرة ، لا لان صاحبها قرر أن يكون كذلك ، بل لسبب بسيط جدا هو أن هناك حاجة أو ضرورة ظاهرة أو خافية تجبره على الفعل وتضطره اليه ، اذ أن هناك شيئا يهمه اكبر الاهمية معرض للخطر : كالشرف ، أو الصحة ، أو المال ، أو دفع الاذى ، او الانتقام ، او عاطفة سامية .. الخ

وهناك أيضا شخصية المعارض للشخصية المحورية أو خصمها ، وهو ذلك الشخص الذى يكبح جماح البطل المهاجم . وهذا الخصم فى أية تمثيلية يجب أن يكون بالضرورة شخصا قويا لا يلين ، ولا تعرف الرحمة سبيلا الى قلبه، كالشخصية المحورية تماما ، واذا كان الخصم لا يستطيع ، لسبب من الاسباب ، اثارة نضال طويل الامد ، فيجب عليك اذا كنت كاتبا مسرحيا أن تبحث عن شخصية أخرى يكون فى امكانها القيام بذلك .

وحينما تفرغ لاختيار شخصيات مسرحيتك ، فاحرص على أن تنسق ذلك تنسيقا حسنا ، وعلى أن تحسن توزيع الادوار عليهم ، وهذا هو ما يسمى بالتخطيط او التوزيع .



فانك اذا جعلت شخصياتك كلها من نمط واحد ـ كأن اخترتهم جميعا من المشاغبين ـ كنت كمن كون فرقة موسيقية اقتصر فيها على عازفى الطبول فقط !

أقسام الصراع

• **وبعد** الشخصية ينتقل «ايجرى» الى الصراع فيقسمه الى أربعة أقسام رئيسية هى : الصراع الساكن ، والصراع الواثب ، والصراع الصاعد المتدرج فى بطء ، والصراع المرهص أو الدال ، من طرف خفى ، على ما ينتظر حدوثه .

وضرب المؤلف مثلا لطيفا **للصراع الساكن** هو مثل الشاب الذى يفتح دولاب ملابسه ليتخير بذلة لائقة يقابل بها ، لاول مرة ، حبيبته .. فلا يجد فى الدولاب كله بذلة لائقة لهذه المقابلة ، فينتابه اليأس ويعدل عن هذه المقابلة لان حالته المالية والتزاماته المتعددة لا تساعده على شراء بذلة جديدة . وهذا

الشاب كلما فكر فى حالته هذه شعر باليأس وخيبة الرجاء لانه يفكر باستمرار فى حبيبته وفيما قد تظن فيه ، ويتبع هذا أن يهمل الشاب عمله اهمالا شديدا حتى يضيق أصحاب العمل بحالته ، وينتهى الامر بطرده فيبدأ فى البحث عن عمل آخر !

وهذا هو الصراع الساكن الذى يمكن تتبعه فى البيئة وفى الظروف الاجتماعية التى يعيش فيها الفرد .

أما **الصراع الواثب** ، كما يعرفه ايجرى ، فانه يحدث للشاب الذى اذا رأى بذلته وقد أصبحت كالحة لا تليق بأن يقابل بها حبيبته ، ولم يجد لديه بذلة أخرى مناسبة يرتديها عند الذهاب اليها ، قرر أن يسطو على أحد المصارف أو المنازل أو يعتدى على احد المارة لكى يحصل على المال الذى يريده لشراء بذلة جديدة !

ولكن مثل هذا الصراع لا يحسن على الاطلاق أن يقع على خشبة المسرح ، لان النظارة فى المسرح انما يرغبون فى مشاهده السياق الطبيعى للشخصية وتطورها ، خطوة بعد أخرى .

والصراع الصحيح يتكون فى ظاهره من قوتين متعارضتين ، وفى باطنه يكون كل من هاتين القوتين نتيجة لظروف معقدة متشابكة فى تسلسل زمنى متتابع ، بحيث يبلغ التوتر غايته من الرعب والشدة حتى لا يكون ثمة بد من أن ينتهى بالانفجار .

ويضرب ايجرى مثلا للصراع الساكن ، بهذا الحوار :

هو : هل تحبيننى ؟

هى : أوه ... لست أدرى !

هو : هل تستطيعين أن تفكرى فى ذلك ؟

هى : سأفكر !

هو : متى ؟

هى : أوه ... حالا !

هو : حالا ... متى ؟
هى : أوه ... لست أدرى !
هو : هل أساعدك فى ذلك ؟
هى : هذا قد لا يكون ظريفا ... أليس كذلك ؟
هو : كل شىء ظريف فى دولة الحب ، ولا سيما اذا استطعت اقناعك بأننى الرجل الوحيد الذى تريدين !
هى : وكيف يمكنك أن تفعل ذلك ؟
هو : قبل كل شىء أقوم بتقبيلك !
هى : اننى لن أمكنك من ذلك حتى تتم خطبتنا !

وهكذا تستطيع المضى فى هذا الحديث الى ما لا نهاية !

أما الصراع الواثب فى مثل هذه الحالة فانه يكون كالآتى :

هو : هل تحبينني ؟
هى : أوه ... لست أدرى !
هو : لا تكونى بلهاء ... فكرى من فضلك !
هى : ذكى أنت ... يا ملعون ! هىء !
هو : ولكنى لست على شىء من الذكاء اذا أمكن أن أقع فى هوى امرأة مثلك !
هى : اذهب .. والا (لخبطت) لك وجهك !

* * *

• **ولا بد** للكاتب المسرحى أن يعيد النظر فى فكرته الاساسية كلما تلكأ الصراع أو مشى مترنحا ، أو توقف أو صعد وثبا ... فاذا وجد الكاتب عوجا فى المقدمة المنطقية فعليه أن يقومه . والشخصية المحورية هى المسئولة عن النمو فى أثناء الصراع ، ويجب أن تكون شخصية لا تتخاذل ولا تلين ولا تساوم أو ترضى أنصاف الحلول .

وهكذا يبدو جليا أن الصراع الصاعد يتطلب فكرة أساسية واضحة ، بارزة المعالم ، ووحدة اضداد وشخصيات توافرت

لهـا الابعاد أو المقـومات الثـلاثة : الجسمانية والنفسـية والاجتماعية .

الحـوار

• **ويتحدث** ايجرى عن أهمية الحوار للمسرحية فينقـل عن بحث قدمته له احدى تلميذاته فى المدرسة التى يقوم فيها بتعليم فن الكتابة المسرحية ما يلى :

« ان الحوار فى المسرحية هو الاداة الرئيسية التى يبرهن بها الكاتب على فكرته الاساسية ، ويكشف بها عن شخصياته ، ويمضى بها فى الصراع . ومن الاهمية بمكان أن يكون حوار المسرحية حوارا جيدا ، بما أنه أوضح أجزائها وأقربها الى أفئدة الجمهور وأسماعهم .

الا ان الكاتب المسرحى اذا اعترف بأن المسرحية لا تكون شيئا اذا ساء حوارها ، يجب أن يعترف كذلك بأن الحـوار الجيد شىء مسـتحيل ما لم يكن صـادرا صـدورا معبرا وصحيحا عن الشـخصية التى تستعمله . وما لم يصـلح للتعبير تعبيرا طبيعيا وبدون مشقة عما حدث للشخصيات من كل ما هو مهم لموضوع الرواية »

ومن أهم وظائف الحوار أن يشف عن الاحداث المقبلة . ففى مسرحية لجريمة يجب أن يشتمل الحوار على الباعث على الجريمة . وفى كثير من الاحيان على معلومات تحضيرية عما له صلة بالجريمة الفعلية .

وعلى هذا فالحوار ينمو من الشخصية ومن الصراع ، ثم هو بدوره يكشف لنا عن الشخصية ويحمل الفعل ، أعنى يقوم بأداء الموضوع وشرحه . وهذه هى وظائفه الرئيسية ، لكنها وظائف لا تعـدو أن تفتح موضوع المسرحية . وهنـاك أشياء كثيرة يجب أن يلم بها الكاتب حتى يحافظ على حواره من التفاهة والسطحية .

فاقتصد فى استعمال الكلمات . وتذكر أن الفن ميدان انتخابى يجب فيه التنخل والتدقيق ، وليس فيه مجال للنقل الفوتوغرافى .. بهذا تظفر وجهة نظرك بأكبر قسط من الاقتناع ما دامت غير مثقلة بما يطمسها من كثرة الكلام وطول الثرثرة . ان المسرحية الكثيرة اللغو الطافحة بالكلام ، تحمل الدليل على اضطراب تفكير كاتبها . وهو اضطراب ناشىء عن تفاهة الاعمال التمهيدية التى يجب أن تسبق كتابة المسرحية .

وعليك أن تضحى بزخرف الكلام وأناقته فى سبيل الشخصية اذا لزم الامر .. **ولتتكلم شخصياتك بلغة البيئة التى تعيش فيها ، فاذا كان صاحب الشخصية ميكانيكيا فانه يتحدث بالاصطلاحات الميكانيكية ، واذا كان من العاملين فى ميادين السباق فليستعمل المصطلحات الخاصة بالمراهنات والخيل** . ويجب ألا تغرق فى تصوير الاعمال المهنية والحرف المختلفة أو تتوسع فى ذلك توسعا ينتهى الى سخرية الجمهور بك ، ولكن لا تحاول أيضا الاستغناء عن ذلك تماما ، والا كان أى حوار تقوم به حوارا ضحلا ولا قيمة له . وخلط الحوار بشىء من التصوير المهنى قد يستعمل بصورة ناجحة فى الروايات الهزلية الماجنة . وكتاب الملاهى الوضيعة يلجأون الى اصطلاحات الطبقات الوضيعة «يزغزغون» بها جمهورهم . ولكن استعمال هذه المصطلحات فى المسرحية الجدية عمل غير لائق .

وحذار من الحذلقة . واياك أن تجعل روايتك منبرا للثرثرة (للرغى !) والشقشقة . ولتكن لك رسالة ما وسعك ذلك . ولكن أد رسالتك بطريقة طبيعية بارعة لا أثر للتحذلق فيها . ولا تسمح لبطلك الاول بتاتا بالخروج على شخصيته ، وذلك بأن تجعله يلقى خطبة .

وعليك فوق هذا ألا تغلو فى تأكيد الحوار والمبالغة فيه الى حد الحذلقة ، وتذكر أنه الواسطة التى تحمل مسرحيتك الى الاسماع ، لكنه ليس هو المقصود بالذات ، ولا هو أعظم من كل ما فيها ، أنه يجب أن يناسب موضوعها فى غير شقشقة أو تنافر .

وبعد — فتلخيصا لهذا كله — نقول أن الحوار الجيد هو ثمرة للشخصية التى أحسن اختيارها وسمح لها بالنماء نماء منطقيا ، الى أن يكون الصراع الصاعد قد أقام الدليل على صحة الفكرة الاساسية .

لكى تكون كاتبا مسرحيا !

ويختتم المؤلف كتابه بقوله :

« لكى تكون كاتبا مسرحيا يجب أن تكون شخصا ذا خيال وادراك ، وذوق ، وتمييز ، وقوة ملاحظة ، وألا تكتفى قط بالمعلومات السطحية عما تكتب . ويجب أن تكون طويل الاناة واسع الصبر ، فى البحث عن الاسباب والدوافع . كما يجب أن تكون على قسط كبير من حسن التقدير والوزن للامور وصحة التذوق . وينبغى أن تلم بعلوم الاقتصاد والنفس وأعضاء جسم الانسان والاجتماع »

ويقول المؤلف أيضا أن المرء ليتولاه العجب فى كثير من الاحيان مما يراه من اجتراء بعض الناس على أن يصبحوا كتابا أو مؤلفين مسرحيين ، كأنما التأليف المسرحى لعب فى لعب !

.. ويتساءل المؤلف : **ان الشخص اذا أراد أن يتعلم صناعة الاحذية لم يستغرق فى تعلمها أقل من ثلاث سنوات ، فلماذا تكون الكتابة المسرحية ، وهى من أشق الصناعات ، هى الصناعة التى يحاول هؤلاء المجترئين أن يزاولوها بين عشية أو ضحاها ، وبدون دراسة جدية أو المام بأصولها وقواعدها ؟**

الجريمة..
والعقاب



المحاكمات
الكبرى
فى الماضى والحاضر

عزيزى القارىء ..

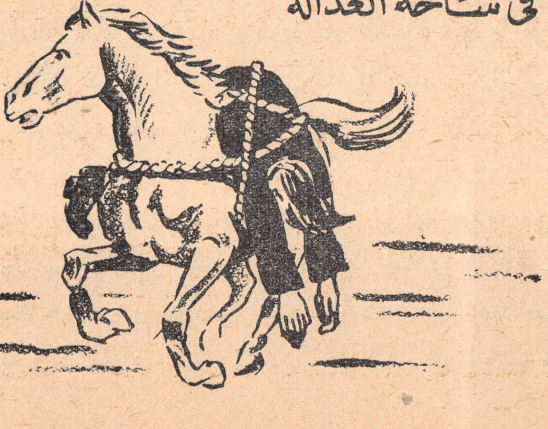
قدمت لك فى الاعداد السابقة من كتابى طائفة من القضايا والمحاكمات الهامة ، هى على التوالى : محاكمة ((جورجيت هودو)) ملكة الجمال الباريسية .. فمحاكمة السفاحين ((بيرك)) و ((هير)) .. ثم محاكمة فيلسوف اليونان العظيم ((سقراط)) .. ومحاكمة ((آن بولين)) ملكة انجلترا فى عهد هنرى الثامن ، فمحاكمة ((دريفوس)) .. ومحاكمة ((ستافسكى)) .. ثم محاكمة ((مرجريت فهمى)) .. ومحاكمة ملك انجلترا ((شارل الاول)) واعدامه .. ومحاكمة قاتل راسبوتين .. ثم محاكمة ملك فرنسا لويس السادس عشر .. ومحاكمة قاتل عشيق زوجته (من محاكمات أثينا القديمة) و ((جريمة درب العشاق)) .. و ((جريمة حارة التونى)) .. ثم ((الغانية السمراء)) ، وهى الحلقة الاولى من كتاب ((نساء ومآس فى ساحة العدالة)) .

وفى هذا العدد أقدم لك الحلقة الثانية من هذا الكتاب



الجثة الحائرة!

نساء ومآسٍ
في ساحة العدالة



أغرب .. من « ألف ليلة وليلة » !

عزيزى القارىء ..

فى العدد الماضى رويت لك قصة لقائى مع هذا الكتاب الشائق ، فى قسم الكتب من محل (بون مارشيه) بمدينة بروكسل .. وكيف جذبنى ـ أول ما جذبنى ـ عنوانه الذى يمنى القارىء بجولة واسعة فى تاريخ الجريمة والعقاب أمام القضاء الفرنسى ، فى مختلف العصور .. سيما وان جميع المحاكمات التى تناولها الكتاب كانت عن جرائم ارتكبتها « نساء » ! .. وهكذا يتيح لنا الكتاب أن نرى كيف تستطيع « الأيدى الناعمة » أن تتحول أحيانا الى أيد « قاتلة » ، متوحشة ، مخضبة بالدماء ، بدلا من الحناء ! .. وأن نلمس الدوافع التى تجعل الحب ـ والحب الصادق ، المضحى ، فى كثير من الأحيان ! ـ قديرا على أن يقود ، من فرط عنفه ، الى الجريمة !

بل ان هذا الكتاب ـ الذى جمع مؤلفه مادته من سجلات المحاكم وأضابير المحققين ـ يرينا نماذج فريدة ، واقعية ، صارخة ، من ظواهر الحياة الحافلة بالمتناقضات .. يرينا كيف أن المرأة ، التى تكون أحيانا مصدر الحب ،

والحنان ، والتشجيع الذى يدفع الرجل الى قمة المجد .. تكون فى أحيان أخرى مصدر شقاء الرجل ، وعذابه .. بل مصدر الالهام الذى يدفعه الى الاجرام !

وقد قدمت لك فى العدد الماضى الحلقة الأولى ، أو المأساة الأولى من المآسى الواقعية التى جمعها فيه مؤلفه الباحث الفرنسى « روجيه ريجى » ، وكانت مأساة الغانية السمراء « فيولانت » ذات العينين الساحرتين ، التى عاشت فى مدينة (تولوز) فى القرن السابع عشر ، والتى قادت الى الجريمة رجلين من خيرة رجال المدينة ، بل شيخين من أكثر شخصياتها وقارا واتزانا : أحدهما قاضى محكمة المدينة الأستاذ « فرانسوا دى جايرو » ، والثانى عالم دينى و « دكتور فى اللاهوت » من أساتذة جامعة تولوز ، هو « البروفيسور بيير آريا بيردو » !

واليوم أقدم لك فيما يلى الحلقة الثانية من الكتاب ، وهى تنطوى على مأساة أخرى تكاد من فرط غرابتها أن تنقلب الى ملهاة مضحكة من أقاصيص « ألف ليلة وليلة » ، لولا أن المؤلف قد استقاها من السجلات الرسمية لقضاء مدينة (روان) الفرنسية ، فى القرن السابع عشر أيضا ..

فتعال نقرأ معا هذه القصة العجيبة من قصص الغرام والاجرام :

الجثة الحائرة

هيلين .. حسناء (روان) !

• كل شيء جائز في الجريمة ، ولو كان يفوق الخيال ! ..
هذا ما تبينه أهالى مدينة (روان) ، الذين حدا بهم الفضول الى أن يتدفقوا ـ رجالا ونساء ـ على قاعة محكمة الجنايات ، فى أحد أيام شهر أبريل سنة ١٦٢٨ ، ليشهدوا محاكمة السيد « أوجستان ميرى » وزوجته .

وما كان اهتمام القوم موجها الى السيد « ميرى » بقدر ما كان موجها الى زوجته . فقد كان هو رجلا ككل الرجال ، لا تكاد يميزه عن سواه شيء .. **ولكن الفضول ، والاهتمام ، والسخط ، والاعجاب ، وطائفة من المشاعر المتضاربة المجتمعة ـ فى آن واحد ـ أخذت توجه الانظار الى الزوجة الشابة التى جلست فى قفص الاتهام .. وكانت ذات جمال غير عادى ، تحمل اسم الفاتنة الاغريقية التى كانت سببا فى حرب طروادة : « هيلين » !**

كانت هيلين حسناء (روان) فى العام الحادى والعشرين من عمرها ، ذات شعر أشقر مسترسل ، أحاط ـ كاطار من ذهب ـ بوجه ذى قسمات دقيقة ، رشيقة ، متناسقة ، وعينين فى زرقة السماء الصافية ، تشعان ببريق يضفى على الوجه براءة الطفولة الساذجة .. ترى كيف قدر لمثل هذا الجمال أن يزف ـ قبل سنوات ثلاث ـ الى زوج قمىء

الشكل ، ذى لحية غير مهذبة ؟ .. الواقع أن الامر لم يكن لغزا عويصا . فلقد ولدت « هيلين » فى اسرة مدقعة الفقر ، ونشأت فى أحضان البؤس والمسغبة . وكانت مشاهد العز والرفاهية تثير فى نفسها طموحا طاغيا ، وتحملها على أن تحلم بزوج ثرى يهيىء لها ما يحقق طموحها .. لذلك لم تتردد فى قبول « ميرى » حين عرض عليها الزواج ، اذ كان يملك ثلاث سفن يؤجرها للنقل ويستخدمها فى التجارة ، وقد جمع من وراء ذلك ثروة كبيرة .. كبيرة فى نظر « هيلين » على الاقل !

وهكذا تزوجا ، وانتقلت العروس للاقامة فى دار زوجها بشارع (دى هالاج) ، الذى يمتد بين نهر السين والكاتدرائية الكبيرة . وبلغ من عرفانها بفضل « ميرى » انها لم تكن تدخر وسعا فى سبيل اطلاعه على مدى تعلقها به ، وفى اضفاء كافة ألوان الرعاية والخدمة له ، وفى تهيئة أحلى المتع له ، حتى انه أصبح يشعر كأن الشباب قد ارتد اليه ، وهو الذى كان قد بلغ الخمسين من عمره .

المصائب لا تأتى فرادى !

• **وسارت** حياتهما هادئة ، ناعمة ، موفقة ، يحف بها الحب والاخلاص ، وتشيع فى جوها الهناءة والسرور . الى أن كان خريف سنة ١٦٢٦ ، واذا بسوء الحظ يوقع بميرى ضربة قاصمة . فان السفن الثلاث التى كانت مصدر ثرائه ، ضاعت تباعا .. **اذ غرقت احداها لانها كانت جد عتيقة .. وشب فى الثانية حريق ، فلم يتسن انقاذها .. وهاجمت**

عاصفة السفينة الثالثة ، فلم يقع أحد لها على أثر بعد ذلك !
وكاد الرجل أن يجن اذ منى بهذا الخراب فى فترة وجيزة ، بعد أن كان قد اطمأن الى الحظ ، وارتاح الى الحياة . وزاد من نكبته أنه فقدالشطر الاكبر من ثروته فى الخلافات القضائية التى ترتبت على مصائر السفن ، وعلى ضياع ما كانت تحمل من بضائع كان بعضها ملكا للغير ، والبعض الآخر ملكا له ولكنه لم يكن قد سدد ثمنه ، فتسابق أصحاب الديون الى محاولة الحصول على ما لهم لديه قبل أن يصبح معدما !

وهكذا ألفى « ميرى » نفسه فى الحضيض ، بين عشية وضحاها ! .. شىء واحد ، بل شيئان بقيا له : البيت الذى كان يقيم فيه ، ووفاء زوجته التى راحت تسرى عنه وتخفف من أساه ، وتشحذ من عزيمته ، قائلة له : « **لا تحزن ، فلن يكون القدر بهذه القسوة الى الابد . والى أن يعاودنا السرور ويواتينا الفرج ، اليك الحلى والمجوهرات التى كنت قد أهديتنيها ، فان ثمنها يكفى لكى نواصل العيش فى وضع كريم !** »

ولم يملك « ميرى » أن يرفض ما عرضته زوجته عليه ، وهو فى أقصى حالات التأثر ، وقد ازداد اعجابا بها ، وتقديرا لها ..

وسارت الاحوال على نحو محتمل ، فترة من الزمن . وعمد الزوجان الى تسريح خدمهما ، والى الاقتصاد فى نفقاتهما .. وأخذ « ميرى » يسعى هنا وهناك ، محاولا أن يجد من أصدقائه القدامى عونا يمكنه من أن يعاود العمل

والتكسب ، ولكن أصدقاء الرخاء تنكروا له فى الشدة ، فلم يوفق فى مساعيه .. وراح المبلغ – الذى حصل عليه من بيع حلى زوجته ومصوغاتها – يتسرب من بين أصابعه حتى أوشك أن ينفد . واشتد به الضيق ، فراح يقاوم جاهدا ، ولكن جميع السبل سدت فى وجهه !

وأطبقت على « ميرى » أخيرا ظلمات اليأس ، فأخذ يتخبط فى دياجيرها ، وعميت عليه الافكار المشرقة ، وأصبح يفكر على غير هدى . وذات مساء ، خطرت بباله فكرة حاول أن يطردها عن رأسه ، ولكن دون جدوى ، فلم يلبث أن قال لزوجته : **« ان بوسعك أن تقدمى لى عونا كبيرا فى محنتنا هذه .. فكم بهر جمالك من أنظار ، وكم سبى من قلوب . وانى لاعرف كثيرا من علية القوم يتمنون أن ينزلوا عن الكثير فى سبيل القرب منك ! »**

وشهقت « هيلين » مأخوذة ، وقد صدمت بقوله ، فأسرع مستدركا : « لا تظنى اننى قد فقدت عقلى ، أو اننى أتهاون فى شرفى وأفرط فيك . بل اننى أعتز بحبك ، واتشبث بوفائك . ولكن بوسعك – وانت ذكية اريبة – أن تغرى أى رجل فتظهرى له من الود ما يجعله يمنى نفسه الامانى ، فيغدق عليك الهدايا ، ويتفانى فى ارضائك ، ثم لا يظفر فى النهاية بمأرب ! .. فاذا أنت أتقنت هذا الدور ، سنحت الفرص لتحسين حالنا ! »

ولكن الزوجة الشابة استنكرت من زوجها هذا التفكير ، وحزنت أشد الحزن ، ورفضت أن تستمع الى مزيد .. حتى

اذا اشتد الضنك ، وخيم على البيت شبح المسغبة والجوع ، عاد الزوج يغرى زوجته بخطته .. وفى هذه المرة أصغت له ، لكنها ظلت على رفضها .. **فلم يلبث أن قال يائسا : « اذن ، فلم يبق أمامى سوى ان أضع حدا لحياتى التعسة هذه ، فأموت ! » .. وفى غمرة القنوط ، أعد حبلا اعتزم أن يستخدمه فى الانتحار .**

وجزعت « هيلين » ايما جزع ، فهى لم تنس بعد أن « ميرى » قد انتشلها من وهدة الفقر ، وأكرمها ، وأغدق عليها الخيرات أيام الرخاء .. ثم انه – حتى فى محنته – كان وقاء لها من كثير من الشرور والمكاره ، ولو غاب عن حياتها لهوت الى حضيض التشرد فى الطرقات والتسول ! .. ومن ثم لم تلبث أن سلمت بأن خطته شر ليس منه بد ، وبلاء مؤقت ، ريثما تتحسن أحوالهما . وهكذا قبلت أن تقوم بالدور على مضض ، ممنية نفسها بأن لها من قوة اعتصامها بالشرف ما يجنبها الزلل .. ومن ثم أخذا يستعرضان أسماء « الضحايا » الذين يحتمل أن يفيدا منهم !

وفجأة ، دق « ميرى » جبينه براحة يده ، وهتف وقد أبرق فى ذهنه خاطر : « لماذا نذهب بعيدا ، ولدينا رجل سلس القياد ، فى البيت الملاصق لبيتنا ؟ .. أجل ، لماذا لا نبدأ المحاولة بالاستاذ جريزيو ؟ »

وكان « ليونار جريزيو » محاميا ناجحا ، ورث عن أبويه ثروة طيبة ، ضاعفها بجده فى المحاماة .. **وقد كان فى عنفوان الشباب – فى حوالى الثلاثين من عمره – أنيقا ، مليحا ، ذا**

جولات فى دنيا الهوى تفوق جولاته فى ميادين القضاء .. ثم انه كان جد قريب ، اذ كان بيته يلاصق دار الزوجين فعلا .

واستعرضت هيلين كل هذه الاعتبارات ، ثم نكست رأسها ، وتمتمت فى استخذاء المغلوب على أمره : « ما دامت هذه مشيئتك ، فسوف أعمل على ارضائك ، مهما أتكبد فى هذا السبيل . ولكنى أرجو أن تتذكر دائما اننى لن افعل هذا الا من اجلك انت ! »

عند ما يذوب الجليد !

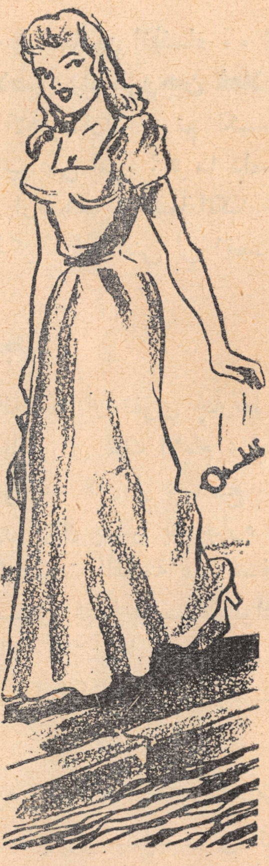
• **وكان** من السهل على الشابة الجميلة أن تغوى جارها . فلقد كان الشارع – ككل شوارع الحى فى تلك الايام ، أيام لويس الثالث عشر – ضيقا ، حتى لقد كان فى وسع من يبسط يده من نافذة احدى الدور ، أن يمس يد جاره فى البيت المقابل . وكانت تفصل البيوت القائمة على صف واحد ، أفنية كثيرا ما كانت تتصل فيما بينها بأبواب صغيرة ، لعلها كانت نوعا من وسائل الاحتياط للطوارىء ، كأن يشب حريق فى دار ، فيستطيع أهلها أن يلوذوا بفناء الدار المجاورة .

والواقع أن جمال « هيلين » لم يكن سرا خافيا عن المحامى الشاب المجاور .. فقد كان يشهد الجارة الشابة – فى كل صباح – وهى فى مخدعها ، أو فى فناء دارها ، أو وهى تتنقل بين حجراتها .. **ولقد حاول مرارا أن يجتذبها اليه ، بالابتسام أو بمحاولة تحيتها ، ولكنه لم يكن – فى كل مرة –**

يحظى منها ولو بنظرة واحدة، حتى يئس منها ، فلم يعد يشغل بها .

على انه فوجىء بالحال تتغير فى أوائل شهر مايو .. اذ لاحظ ان الزوجة أصبحت تولى نوافذ داره بعض نظراتها ، وان طيف ابتسامة واهنة كان يتبدى على شفتيها . ولكن الامر لم يتجاوز هذه الحدود ، فلم يكن يجد ما يطمعه فى مزيد .

الى أن كان ذات صباح ، اذ رأى « هيلين » تغادر دارها ، وتغلق الباب خلفها بالمفتاح . ثم سارت فى طريقها ، واذا المفتاح يقع منها فى الطريق .. وكانت فرصة لا تعوض ، فأسرع والتقطه، ثم هرع خلف الحسناء وقدمه اليها ، فشكرته فى حرارة .. واردفت : « ما أخالك تتصور يا سيدى مدى الصنيع الذى أسديته لى،



« .. واذا المفتاح يقع منها فى الطريق .. وكانت فرصة لا تعوض ! »

فان زوجى قد سافر ، ولن يعود قبل المساء .. فماذا كنت ترانى صانعة لو لم تعثر على المفتاح ؟ »

ولم تكن هذه العبارات أكثر من مجاملة عادية ، **ولكن اللهجة التى بدرت من هيلين ، والابتسامة التى أشرق بها محياها ، خلبا لب « جريزيو » ، وبعثا فى نفسه المشاعر التى راودته من قبل نحو جارته ، والتى جهد فى أن يكبحها حين لم يجد من المرأة تشجيعا ..** فأجابها هذه المرة فى عبارات منمقة ، وهو يسير الى جوارها جنبا الى جنب .. وعاوده الامل والرجاء ، فحرص على أن يطيل من حبل الحديث ، قائلا : « مادمت وحيدة ياسيدتى ، فيسعدنى أن أكون رهن اشارتك ! » . واتسعت ابتسامتها وهى تقول : « شكرا .. فالواقع اننى ما خرجت من البيت الا لمجرد الرياضة » .

ـ اذن ، فهلا شرفتنى فسمحت لى بأن أسير فى ركابك ؟ .. ان الطقس صحو اليوم ، وانه لانسب الايام لنزهة خلوية ، فهلا سمحت لى بأن أصطحبك الى الخلاء ، فنتمشى على ضفة النهر ، ونحظى بالهواء الطلق العليل ، ثم نعرج ـ فى عودتنا ـ على أحد المشارب الخلوية ، فتسعدينى بأن تقبلى منى بعض الشراب المرطب ؟

وأبدت ترددا ، كما تفعل كل امرأة شريفة تواجه اغراء الشيطان ، ثم انتهى بها الامر الى قبول العرض فى استحياء وارتباك . ويمما شطر نهر (السين) .

ولم تعد « هيلين » الا والنهار يحتضر .. ولكى لا يفطن أحد الى ما كان بينهما ، حرصت على أن تكون وحيدة فى

عودتها . ولم يرجع « جريزيو » الى داره الا ليلا .. ومع انه لم يحظ بأكثر من الامساك بيد الزوجة الحسناء ، والضغط على راحتها البضة الطرية ، الا انه لم يعد يشك فى **انه** لن يلبث ان يوفق الى كسب قلب « هيلين » .. وأصبح يرصد حركاتها من نافذته ، فما من مرة رآها تغادر بيتها وحيدة الا أسرع الى اللحاق بها ، متظاهرا بأن المصادفات وحدها كانت تسوقه الى لقائها !

أكياس النقود تتوالى .. دون مقابل !

. وكثرت أسفار الزوج ، فكثر لقاء « هيلين » و «ليونار جريزيو » ونزهاتهما . وذات يوم ، أطاعت الشابة الحاح جارها ، وذهبت معه لمشاهدة احدى الفرق التمثيلية الهزلية .. وكان الزحام شديدا ، فلم يجد جريزيو بدا من أن يطوق خصرها بذراعه لكى يقيها وطأة التدافع .. **وشيئا فشيئا ، أخذ يشد ذراعه حولها .. ثم ظلت ذراعه حولها فى عودتهـا . ولم يلبث ان مال على الحسناء فقبلها ! ..** وكانت هذه بداية مرحلة جديدة فى علاقاتهما . مرحلة أباحت لهيلين ان تفضى الى حبيبها ببعض همومها ، فراحت تشكو له من غيرة زوجها ، ومن بخله وشحه ــ حتى انه كان يقتر عليها فى الطعام واللباس وأدوات الزينة ! ــ وما كان المحامى الثرى العاشق ليطيق أن تعانى حبيبته هذا ، فأصبح يوافيها ــ فى لقاءاتهما ــ وقد حمل كيسا متخما بالنقود ، حتى اذا آن لهما أن يفترقا ، دس الكيس فى يدها .. وكانت

تحتج وتعارض فى استحياء واستنكار ، ثم تنتهى الى قبول الكيس ، لتسلمه بعد ذلك الى « ميرى » ، الذى استمرأ هذا الكسب السهل ، فأخذ يشجعها على المضى فيه !

وانقضت شهور دون أن يظفر « جريزيو » من فاتنته بأكثر من شفتيها .. فأخذ يزداد الحاحا فى طلب المزيد . وكانت هيلين تعده وتخلف ، ثم تتظاهر باللين لتعود فتصد وتقاوم . والواقع ان هذا المسلك منها لم يكن سوى مجرد حيلة . ذلك لان ألوان الرعاية التى كان ليونار المستهام يحيطها بها ، بدأت تحدث آثارا فى نفسها ، فلم تلبث أن راحت تقارن بين جماله وقبح زوجها ، وبين شبابه وكهولة « ميرى » ! .. وأخذ الالم الذى كان يتبدى على محياه كلما صدته ، يفرى قلبها ، فأصبحت تتلطف معه ، وتتسلل فى كثير من الايام الى داره خفية ..

وذات يوم ، تعمد المحامى أن يقصى خادمه عن الدار فى الموعد الذى كان قد اتفق فيه مع هيلين على أن توافيه . وما ان ولجت هيلين داره ، حتى اطبقت عليها ذراعاه فى وجد محموم .. **ونسيت المرأة نفسها فى حرارة أحضانه . وعندما غادرته ، كانت تلوم نفسها على أن ضيعت كل مافات من وقت ، ففوتت على نفسها ما اكتشفته فى ذلك اليوم من متع وملذات !**

ودامت غرامياتهما — فى تكتم بالغ — طيلة الصيف ، وهيلين مواظبة على اسلام زوجها ماكانت تتلقاه من عشيقها من منح سخية ، والزوج مغتبط قرير ، مطمئن الى عفة زوجته

ووفائها ، مرتاح الى انهـا كانت من البراعة والدهاء بحيث أوقعت الجار المحامى فى شباكها ، دون أن تنيله وطرا .. فقد كان موقنا من انها ـ بعد كل ما ابدته من معارضـة فى البداية ـ ما كانت لتحيد عما قطعته على نفسها من وعـد بأن تظل وفية له .

وفى تلك الاثنـاء ، كانت نشـوة الهوى قـد استخفت ((جريزيو)) ، فلم يعد يقنع بأن توافيه حبيبته فى داره ، بل انه أصبح يجازف بالتسلل الى دارها كلما اطمأن الى غياب زوجها .. ولقد استقبلته هيلين ـ فى البداية ـ مستاءة ، خائفة ، وجلة . بيد انها لم تلبث أن رضيت عن مسلكه ، سيما حين أقبل الشتاء بأمطاره وعواصـفه ، ولم يعـد فى وسعها هى أن تذهب اليه !

غضبة مفاجئة .. للشرف !

• **الى** أن كان ذات مساء ، وقد أسكر الهوى العاشقين ، واذا الزوج يعود الى داره بغتة ، فيفاجئهما .. وكان غضبه أعتى من كل مايخطر بالبال ، ومن كل مايرتقب من زوج كان هو الذى راح يدفع زوجته حتى اضطرها الى الانزلاق ! .. **وكانت فى يده عصا ثقيلة ، فهوى بها على رأس ((جريزيو)) .. واختلج جسم المحامى الشاب ، ثم همد وقد فارقتـه الحياة !**

وأفاق الجانى من هياجه ، فجزع ، وارتبك ، وارتعـدت فرائصه ، بينما أخرس الحادث ((هيلين)) وشل حراكهـا ،

وشتت بالها فلم تعد تقوى على ان تفكر فى شىء .. وانما راحت تحملق فى الجثة ، وفى زوجها ، بنظرات ملؤها الفزع والذهول !

واذ تمالك « ميرى » بعض رباطة جأشه ، أخذ يزن تبعات فعلته . فلم يلبث ان هتف بزوجته : « حذار ان تنبسى بكلمة ، أو تطلقى صرخة ، والا ألحقتك بعشيقك ! .. وفيما عدا ذلك ، فسأتكفل أنا بكل شىء ! »

وكان بوسعه أن يدع الجثة حيث كانت ، وأن يدعى انه قتل المحامى الشاب فى سورة الغضب لشرفه وعرضه، ولكنه خشى ما قد يخوضه من متاعب ومضايقات الى أن يثبت براءته .. وخشى فوق هذا أن تفضحه زوجته متعمدة ، أو تحت وطأة الخوف من اجراءات السلطات .. لذلك قرر أن يتخلص من الجثة ، بأسرع مافى وسعه ، وفى تكتم تام ..

لعنة القتيل .. تلاحق القاتل !

• الى هنا والمأساة عادية ، كغيرها من مآسى الهوى ..

ولكن المرء سيجد ـ فى المراحل التالية منها ـ الدليل على أن كل شىء جائز فى الجريمة ، ولو كان يفوق الخيال .. بل ولو كان مما يأبى العقل ان يصدقه !

ذلك أن « ميرى » أسرع فحمل جثة ضحيته على كتفيه ، ودلف بها خلال الباب المفضى بين فناءى داره ودار «جريزيو» ، ثم سار فى حذر، **وألقى بالجثة على الارض المرصوفة بالحصباء ، أمام سلم الدار ، بحيث تبدو وكأنما زلق صاحبها ـ وهو يصعد السلم ـ فهوى ، وارتطم رأسه بالارض** . ولعل الامور

كانت تسير كما تخيلها « ميرى » ، لو لم يكن خادم «جريزيو» رعديدا ، جبانا .. فقد صدرت عن «ميرى» بعض الضوضاء، وهو ينسحب عائدا الى داره ـ برغم كل حذره ـ فاذا الخادم « مارتان » يستيقظ من نومه . وأسرع فحمل مصباحا ، وهبط الى مدخل الدار .. وهناك ، فوجيء بمولاه مسجى على الارض ، مهشم الرأس ، فاقد الحياة !

وانحنى عليه يفحصه ، فرأى الجرح ، وتبين بجلاء انه انما حدث نتيجة ضربة عنيفة بعصا ثقيلة . وتولاه الجزع اذ خيل اليه انه قد يتهم باغتيال مخدومه . ولكى يتخلص من كل شك قد يتجه اليه ، حمل جثة القتيل ـ بعد ان اطمأن الى خلو الشارع من المارة ـ وهو لا يفكر الا فى وضعها بعيدا عن البيت .. ولكن ، أين ؟ .. ولم تطل به الحيرة ، فوسد الجثة مدخل دار « اوجستان ميرى » المجاورة ، ثم تسلل عائدا .

ورابت « ميرى » الحركة الخفيفة التى تناهت الى اذنيه فى هدأة الليل ، ففتح النافذة المطلة على مدخل داره ، واذا به يفاجأ بجثة ضحيته ، وكأنها أسرعت بالعودة لتتهمه ! .. واشتد به الاضطراب .. لابد له من ان يتخلص من هذا الخطر الداهم ، مهما يكن الثمن . ولكن ، كيف ؟

ولم تسعفه القريحة الا بفكرة واحدة .. تلك هى أن يحمل الجثة فى كيس ـ والليل لا يزال باسطا ظلامه ـ فيلقى بها فى أحضان نهر (السين) ، فلا يلبث التيار ان يحملها الى البحر ، ولا يبقى لها أثر ! .. وهكذا حمل « ميرى » جثة ضحيته وراح يتسلل فى أطواء الظلام ، يخطو فى حذر ، ويلوذ

بالجدران متواريا ، وهو يسعى نحو النهر ..

ولم يبتعد كثيرا حتى سرت الى سمعه همسات مكتومة ، ووقع خطوات . وأيقن ان رجال الشرطة يطوفون بالشوارع، فى جولاتهم الليلية ، فأسرع الى حارة ضيقة معتمة ، حيث توارى فى مدخل أحد البيوت ، وهو يمسك أنفاسه .. والخطوات تقترب باضطراد . وما لبث أن مر به أصحابها ، فاذا بهم ليسوا من الشرطة،وليسوا أكثر من اثنين . وتناهت الى أذنى «ميرى» بضع كلمات أدرك منها انهما من اللصوص . وتبين أنهما كانا يحملان كيسا ثقيلا .. ولم يلبثا أن وقفا غير بعيد من مخبئه ، فأسلما كيسهما الى الارض ، وراحا يتداولان . وعلم ميرى من حديثهما انهما كانا قد أغارا على حانوت جزار ، فحشوا كيسهما باللحم ، ولكن الحمل ثقل عليهما . وكان أحدهما يعرف حانة قريبة ، فاقترح على صاحبه أن يتركا الكيس فى مدخل أحد البيوت ، ثم يذهبا الى صاحب الحانة فيفاوضاه فى أن يبتاع غنيمتهما .. وسرعان مابادرا الى تنفيذ الاقتراح .

مصادفات .. أعجب من « حواديت » ألف ليلة !

• ولمعت فكرة فى رأس « ميرى » . فما ان اطمأن الى ابتعاد الرجلين ، حتى سعى من مخبئه ، فوضع الكيس الذى أودعه جثة « جريزيو » ، وحمل الكيس الآخر ، وأسرع عائدا الى داره ! .. وما لبث اللصان أن عادا . **واذ هما بأن يحملا كيسهما ، رابهما أمره ، فأسرعا يفحصانه ، واذا بهما يكتشفان انه كيس آخر ، وان بداخله جثة ! ..** واسقط فى

أيديهما . وكادا أن يتركاه ويوليا الادبار ، لولا أن خطر لهما ان الحانة التى فاوضا صاحبها فى شراء اللحم غير بعيدة ، وانه اذا سمع بنبأ الجثة ـ عند اكتشافها ـ سيرتاب فى أنهما صاحباها ، لاسيما اذا هما لم يعودا اليه بعد ان اتفقا معه على الصفقة . وبذلك يتعرضان لشبهات لن يجدا سبيلا الى دحضها أو ردها عن نفسيهما .

فما العمل اذن ؟ .. وكيف الخلاص ؟

ولم يطل بهما التفكير ، فقد راودهما خاطر أسرعا بالاستجابة اليه .. ذلك هو ان يحملا الكيس الى حانوت الجزار الذى سرقا منه اللحم .. وفعلا نفذا الفكرة ، ولم يلقيا عناء فى هذه المرة ، اذ كانا قد حطما أقفال الحانوت فى المرة السالفة .. وعلقا الكيس بما فيه فى أحد المشاجب التى يعلق الجزار اللحم فيها ، ثم أسرعا بالانصراف !

ولا بد ان الحظ كان ناقما على المحامى القتيل ، فلم يكتف بكل ما تعرضت له الجثة ـ منذ أصبحت جثة ـ وانما اعد لها محنة جديدة . **ففى حوالى الساعة الرابعة صباحا ، خطر لصبى الجزار أن يسرق لنفسه شريحة من اللحم ، ينتقم بها مما يعانيه من شح الجزار وتقتيره** . فهبط من المسكن ـ اذ كان يقيم مع مخدومه فوق الحانوت ـ وأمسك بالسكين ..

وفجأة لمح الكيس ، ولم يكن قد رآه قبل اغلاق الحانوت ، فعجب من أمره ، وأسرع يفحص مافيه .. وما ان رأى الجثة ، حتي أطلق صيحة مدوية ، وخر مغشيا عليه !..



« .. وفجـأة لمح الكيس ، فعجب من أمره ، وأسرع يفحص ما فيه .. »

واستيقظ الجزار على الصرخة ، فهرع الى الحانوت . فلما رأى الجثة دهش . ومن الطبيعى أن يكون قد ارتاب فى أن مساعده قاتل . وعبثـا حاول الصبى - حين أفاق - أن يشرح له الامر .. **على أن ما شـغل الجزار أكثر من سواه ، هو أن الفجر كان قد اقترب، وخشى أن يطلع النهار والجثة فى حانوته فتجر عليه المتاعب !**

واحتار الجـزار فى الامر . وفتح باب الحانوت ، وأطل منه ليتفقد الطريق قبل أن يقـدم على شىء ، فاكتشـف أن الاقفال كانت مهشـمة .. على انه لم يعر هذا اهتماما ، من فـرط لهفته على التخلص من الجثة . وفجأة ، سمع فرسـه تصهل فى الحظـيرة المجاورة ، فاذا به يحمل الكيس بجثته ، فيربطه الى ظهر الفرس ، ثم يسـوطها فتندفع تجرى على غير هدى !

قطرات من الدم ، على عتبة الباب !

• **وكانت** الساعة اذ ذاك قد بلغت السادسة صباحا ، وغادر العمال مضاجعهم يسعون الى كسب عيشهم .. واجتذبت الفرس الانظار وهى تجرى كالمجنونة فى الشوارع ، الى أن تعثرت فى حجر فسقطت ، وكسرت احدى سيقانها .

ودفع الفضول بعض المارة الى أن يتبينوا ما كانت تحمل ، فاذا بهم يجدون الجثة . وسرعان ما تعالت الصيحات ، وأقبل الشرطة ، وبدىء فى التحرى والتحقيق .

وعرفت الفرس ، فاهتدى المحقق عن طريقها الى صاحبها، ولكن أقفال الحانوت المهشمة عززت روايته حين زعم انه لم يكن يعرف عن الامر شيئا على الاطلاق ، وان الفرس سرقت من حظيرته ، فلم يكن له شأن بما حملت .

وعرف صاحب الجثة، فما ان ظهر انه المحامى «جريزيو»، حتى ضاعف المحقق من اهتمامه . فلقد كان « جريزيو » — الى جانب شهرته كمحام — ذا سمعة فى ميدان المغامرات الغرامية .. ولذلك رجح المحقق أن تكون وراء الجريمة أسباب تمت الى هذه السمعة .

وألقى القبض على خادم « جريزيو » .. الخادم الرعديد، الذى أفزعه وجود جثة مخدومه فأراد ان يتخلص منها — حتى لا يتهم بشىء — واذا بها تعود اليه ، برغم كل ما مرت به . وأقر الخادم بذنبه ، تحت وطأة الخوف . أقر بأنه ألقى الجثة عند باب الجار .. وكان من الطبيعى ان يلقى المحقق نظرةعلى المكان الذى قال انه وجدها عنده ، ليستبين

مدى صدقه .. **وأجال المحقق بصره حول المكان ، واذا بضع قطرات من الدم ترشده الى الباب الصغير الذى كان يصل بين فناء دار المحامى وفناء دار جاره .. « ميرى » !**

أتراك بحاجة بعد هذا الى من ينبئك بما جرى ؟ .. كان من الطبيعى ان يلقى القبض على « ميرى » ، وان تحوم الشبهات حول زوجته .. وعلى هذا الضوء راح المحقق يسأل خادم « جريزيو » ، فأفضى بما لاحظه من علاقات بين مخدومه والجارة الحسناء . وألقى القبض على « هيلين » هى الاخرى ..

وتكشفت الحقيقة واضحة سافرة .. اعترف « ميرى » بأنه فاجأ جاره المحامى فى أحضان زوجته ، فضربه بالعصا ، وكانت ضربة قاضية .. وألفت « هيلين » أن زوجها قد تخلى عنها ، وانه كشف خيانتها ليخفف من عبء الجريمة عن عاتقه ، فسارعت هى الاخرى الى التخفيف عن نفسها ورد العبء الى زوجها ، بأن أفضت بما أغراها به من خطة للاتجار بجمالها !

وأفلحت « هيلين » ، بينما أخفق « ميرى » .. ولعل جمالها كان ذا تأثير على القاضى وعلى الرأى العام .. فقد برئت ساحتها ، فى حين قضى بالاعدام على زوجها ..

وفى ١٩ ابريل عام ١٦٢٨ ، فى أحد ميادين (روان) ، نفذ فيه حكم الاعدام .. شنقا !



مدينة الخطايا والخطاة !

سدوم وعمورة

.. التى فرّ منها النبى
"لوط" قبل أن يدمّرها الله !

تحقيق فى قالب قصصى
للأثرى المؤرخ : "بول ايلتون"



رحلة شائقة .. فى التاريخ !

عزيزى القارىء ..

• **نقلت** البرقيات العالمية منذ أسبوعين أنباء مثيرة عن محاولات جديدة ستبذل قريبا على ضفة (البحر الميت) ، بالاردن ، لاكتشاف أطلال المدينتين التوأمتين « سدوم وعمورة » ، اللتين لعنتهما الكتب المقدسة كما لم تلعن مدينة من مدن الارض ، فقد استحل أهلهما كل الموبقات ، وأقبلوا على أشنع ألوان الفسق - لاسيما اللواطة والسحاق - وجعلوا الاثم ربة عبدوها ، بل بلغوا فى الغواية مبلغا كادوا معه أن يفتنوا أهل النبى « لوط » ، لولا ان فر وذووه منهما قبل أن تدمرهما « نار وكبريت من السماء » ، كما ورد فى سفر « التكوين » بالتوراة . انها قصة من أروع القصص التاريخية والدينية الخالدة على مر الايام ، نلخصها لك فيما يلى - تلخيصا وافيا مطولا - لمناسبة ما نشرته صحيفة « التايمز » البريطانية من ان الابحاث سوف تستأنف قريبا فى قاع (البحر الميت) للبحث عن آثار المدينتين المذكورتين ، بعد ان أعلن طيارون تابعون لشركات طيران مختلفة أنهم رأوا مايبدو انه اطلال اعمدة ، وشوارع ، وبيوت ، فى قاع ذلك البحر !

وأضافت « التايمز » ان حملات التنقيب عن آثار المدينتين الملعونتين **سوف يقودها غواصان من فرق « الضفادع البشرية » المتخصصة فى الغوص فى أعماق البحار ، احدهما أمريكى يدعى «ملفين ريزى» ، والآخر كندى يدعى «فنسنت بارووود »** ، وسوف يرتديان أردية خاصة للوقاية من التأثير

اللاذع للاملاح التى تتشبع بها مياه البحر الميت . وقد تقرر أن تبدأ الابحاث فى جهة (الدســان) التى تؤلف شريطا من الارض يمتد داخل البحر عند ضفته الجنوبية . والمعروف أن موقع «المدينتين الملعونتين» لم يحدد قط بصورة دقيقة ، رغم المحاولات العديدة التى بذلت فى هذا السبيل . ويعتقد

كثيرون من علماء الآثار ان المدينتين المذكورتين كانتا تقعـان فى جنوب البحر الميت ..

وجاء فى بحث نشرته بهذه المناسـبة جريدة **(وطنى)** ، بقلم السيد **((عوده بطرس عوده))** ، من دمشق : « ان عملية الكشف والتنقيب ستبدأ بالفعل بعد أيام قليلة فى أعماق البحر الميت من جهته الغربية ، على مقربة من (خربة قمران) التى اكتشفت قبـل خمس سنوات وعثر فيهـا على أقدم توراة مكتوبة على قطع من الجلد . وقد جاء فى سفر التكوين ان أعمدة الملح الموجودة قرب لسان البحر الميت انما هى هياكل لاجسام بعض سكان مدينتى (سـدوم) و (عمـورة) . والتنقيب فى تلك المنطقة يتم بالغطس الى أعماق البحر الذى ينخفض عن سطح البحار الطبيعية ١٢٩٨ قدما ، وتبلغ أعمق نقطة فى البحر الميت ألف قدم . ويعتبر هذا البحر أعمـق منخفض فى العالم ، وهو لا يبعد عن القدس سوى ٣٥ كيلو مترا . ويعتقد المنقبون والباحثون عن المدينتين التاريخيتين بأن مفتاح العثور على (عمـورة) بوجه خاص هو (خـربة قمران) . وجزء من هذه الخربة يمتد بوضـوح الى أعماق البحر ، مما يؤيد الروايات التاريخية من جهة ، ويزيد فى عزم المنقبين من جهة ثانية . وعلى أثر اكتشاف مخطوط التوراة فى (خربة قمران) ــ وهو المخطوط الذى اعتبره علماء الآثار أقدم المخطوطات فى العالم ــ اتجهت أنظار الكثيرين من علماء

الآثار والمنقبين الى منطقة البحر الميت ، على أمل اكتشاف مدينة لوط التى فسق أهلها وانحلت أخلاقهم ، ولقوا نتيجة ذلك جزاءهم نارا وطوفانا . ويطلق البعض على البحر الميت « بحيرة لوط » ، نسبة الى النبى لوط الذى كان يسكن (عمورة) ، احدى المدن الخمس التى غمرها الطوفان ، ثم تكون من الطوفان البحر الميت الحالى .

« وقد صرح الدكتور « وليم فوكس » ـ الذى يعتبر أشهر علماء الآثار الفلسطينية ـ بأن الابحاث الواسعة النطاق التى قام بها فى وادى الاردن وعلى سواحل بحيرة لوط والبحر الميت ، تؤكد أن القصة الواردة فى الكتب السماوية عن (سدوم) و (عمورة) ليست خرافة أو قصة رمزية ، بل هى حقيقة تاريخية ، بجميع جزئياتها وتفاصيلها . وسيتولى دكتور فوكس التنقيب بنفسه فى آثار المدينتين ، مستعينا بأمهر الغطاسين وبأحدث الآلات ، بعد أن وافقت الحكومة الاردنية على طلبه . »

هذا الكتاب .. ومؤلفه

• **ولهذه** المناسبة ، يقدم (كتابى) لك فيما يلى تلخيصا لاوفى كتاب تناول بالسرد والتحقيق ـ وان يكن فى قالب روائى جذاب ـ قصة هاتين المدينتين الملعونتين ! .. ومؤلف الكتاب هو الكاتب وعالم الآثار المشهور « بول ايلتون » ، الذى قام بدراسة تاريخ الشرق الادنى ، وتزعم بعثات للتنقيب عن الآثار القديمة فى معظم أرجائه ..

واستكمالا للفائدة ، وتصحيحا لبعض أحداث القصة التى اشتط فيها خيال المؤلف ، رأينا ان نمهد لها بأهم آيات « التوراة » و « القرآن » التي وردت بصددها :

القصة .. فى التوراة

« .. ولوط السائر مع ابرام كان له أيضا غنم وبقر وخيام . ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معا ، اذ كانت أملاكهما كثيرة .. فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشى أبرام ورعاة مواشى لوط . فقال أبرام للوط : « لا تكن مخاصمة بينى وبينك ، وبين رعاتى ورعاتك ، لأننا نحن أخوان . أليست كل الأرض أمامك ؟ اعتزل عنى . ان ذهبت شمالا فأنا يمينا ، وان يمينا فأنا شمالا » . فرفع لوط عينيه ، ورأى كل دائرة الأردن ، ان جميعها سقى قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة ، كجنة الرب ، كأرض مصر ... فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن ، وارتحل لوط شرقا .. ونقل خيامه الى سدوم . وكان أهل سدوم أشرارا وخطاة لدى الرب جدا . »

« سفر التكوين ١٣ »

« .. وقال الرب ان صراخ سدوم وعمورة قد كثر ، وخطيتهم قد عظمت جدا . أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتى الى . والا فأعلم ... فتقدم ابراهيم وقال : « أفتهلك البار مع الأثيم ؟ عسى أن يكون خمسون بارا فى المدينة ، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل

الخمسين بارا الذين فيه ؟ حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر ! » ... فقال الرب : « ان وجدت فى سدوم خمسين بارا فى المدينة ، فانى أصفح عن المكان كله من أجلهم » . فأجاب ابراهيم وقال : « انى قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد . ربما نقص الخمسون بارا خمسة ، أتهلك كل المدينة بالخمسة ؟ » . فقال : « لا أهلك ان وجدت هناك خمسة وأربعين » . فعاد يكلمه أيضا ، وقال : « عسى أن يوجد هناك أربعون » . فقال : « لا أفعل من أجل الأربعين » . فقال : « لا يسخط المولى فأتكلم . عسى أن يوجد هناك ثلاثون » . فقال : « لا أفعل ان وجدت هناك ثلاثين » . فقال : « انى قد شرعت أكلم المولى. عسى أن يوجد هناك عشرون » . فقال : « لا أهلك من أجل العشرين » . فقال : « لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط ، عسى أن يوجد هناك عشرة » . فقال : « لا أهلك من أجل العشرة ».

« سفر التكوين ١٨ »

« .. فجاء الملاكان الى سدوم مساء ، وكان لوط جالسا فى باب سدوم . فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما ، وسجد بوجهه الى الأرض . وقال يا سيدى ميلا الى بيت عبدكما ... فمالا اليه ودخلا بيته ... وقبلما اضطجعا ، أحاط

بالبيت رجال سدوم من الحدث الى الشيخ .. فنادوا لوطا وقالوا له أين الرجلان اللذان دخلا اليك الليلة ، أخرجهما الينا لنعرفهما . فخرج اليهم لوط الى الباب ، واغلق الباب وراءه ، وقال : « لا تفعلوا شرا يا اخوتى .. هو ذا لى ابنتان لم تعرفا رجلا ، أخرجهما اليكم فافعلوا بهما كما يحسن فى عيونكم . وأما هذان الرجلان ، فلا تفعلوا بهما شيئا ، لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفى » ... فألحوا على الرجل لوط جدا ، وتقدموا ليكسروا الباب ، فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطا اليهما ، الى البيت ، وأغلقا الباب . وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير الى الكبير ، فعجزوا عن أن يجدوا الباب .

وقال الرجلان للوط : « من لك أيضا ههنا ؟ أصهارك وبنيك وبناتك وكل من لك فى المدينة ، أخرج من المكان ، لأننا مهلكان هذا المكان ، اذ قد عظم صراخهم أمام الرب ، فأرسلنا الرب لنهلكه » ... ولما طلع الفجر ، كان الملاكان يعجلان لوطا قائلين : « قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك باثم المدينة » . ولما توانى ، أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه ، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة . وكان لما أخرجاهم الى خارج المدينة ، انه قال : « اهرب لحياتك . لا تنظر الى ورائك

ولا تقف فى كل الدائرة ٠ اهرب الى الجبل لئلا تهلك » ٠
واذ أشرقت الشمس على الأرض ، دخل لوط الى (صوغر) ، فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء ، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض ٠ ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح ٠٠ »

« سفر التكوين ٢٠ »

القصة ٠٠ فى القرآن

« ٠٠ ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ٠ انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون »

« سورة الاعراف ٨٠ – ٨١ »

« ٠٠ أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ، وتأتون فى ناديكم المنكر ، فما كان جواب قومه الا أن قالوا أئتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين »

« سورة العنكبوت ٢٩ »

« ٠٠ ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ، قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية ، ان أهلها كانوا ظالمين ٠ قال ان

فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها . لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين »

« سورة العنكبوت ٣١ - ٣٢ »

« .. ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون اليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات . قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزونى فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وانك لتعلم ما نريد . قال لو أن لى بكم قوة ، أو آوى الى ركن شديد .قالوا : « يا لوط انا رسل ربك ، لن يصلوا اليك . فأسر بأهلك بقطع من الليل، ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك ، انه مصيبها ما أصابهم ، ان موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب » . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد »

« سورة هود ٧٧ - ٨٣ »

« .. ولوطا آتيناه حكما وعلما ، ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ، انهم كانوا قوم سوء فاسقين »

« سورة الانبياء ٧٤ »

« .. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابى ونذر »

« سورة القمر ٣٧ »

سدوم وعمورة

للكاتب المؤرخ : « بول ايلتون »

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

— ١ —

• **كان** الجبل ارجوانيا تحت أشعة الشمس الآفلة .. وفى شرفة المعبد التى اكتنفتها الظلال ، وقف « بوثيا » الكاهن الاعلى يرتقب هبوط الليل . وفى الفناء المنبسط أمامه ، كانت ألسنة النار السرمدية تزداد توهجا وتطاولا ، فتعكس ظلالا متراقصة على تمثال « عشيرات » ، ربة الخصب .. وفوق الجبل المشرف على الوادى ، وقف كاهنان يرقبان احتضار الشمس ، حتى اذا توارت ، نفخا فى بوقين من قرون الكباش ، يعلنان لاهل (سدوم) و (عمورة) مولد ليل جديد ، ليرفعوا الى ربتهم « عشيرات » صلواتهم ، حبا وعشقا !

وتأمل « بوثيا » تمثال الربة .. لكم كان يحبها ويوقرها ، فهى التى اختارته ليكون وريثا لعرش المعبد ، واختارت له زوجته «ديبون» الجميلة ، التى صار لقبها « الكاهنة العليا »

.. كما كانت للربة عليه افضال اخرى لا تحصى ، فقد كان الوادى غنيا ، والمدينة واسعة الثراء ، والقوم سعداء .. **وكانت أعظم نعمها « نشوة الحب » ، وهل أبدع فى الحياة من الحب ؟.. انه هو الحياة ، ومنبع الحياة !**

وما كان أحد ليذكر متى وفدت « عشيرات » على مدينتى (سدوم) و (عمورة) . فلعل تمثالها كان قائما أبدا فى فناء المعبد ، يحرس الوادى الذى يقطعه المرء فى ثلاثة أيام وليلتين ، والذى كان النهر يكسبه خصبا .. وعلى هذا الوادى ، كان « بوثيا » يبسط سلطانه ، كما ساده أبوه من قبله ، وكما سيحكمه ابنه من بعده . انه ليذكر تلك الليلة التى مات فيها أبوه منذ ست سنوات ، وأودعت جثته البئر التى تحت النار السرمدية !.. لقد قبع « بوثيا » ــ اذ ذاك ــ فى حجرة من المعبد ، فى جوف الجبل ، فى انتظار الكهنة ليقوموا بطقوس تعيينه كاهنا أعلى ، فلما أقبلوا ، أسلمهم أطرافه ليطوقوها بالحلى الذهبية ، وصدره ليحيطوه بدرع ذهبية مرصعة باليواقيت والعقيق . وبعد أن توجوا رأسه بتاج من ورق الشجر ، أحاطوا به يرفعون الدعوات الى « عشيرات » أن تسدد خطاه ، وان تنمى فحولته ، وان تسوق اليهم الخير على يديه . ثم ركعوا ــ كل بدوره ــ وقبلوا يديه وقدميه ، وما لبثوا ان تقدموه فى صف يحف به عبيد يحملون المشاعل ، الى فناء المعبد ، حيث كان القوم محتشدين .

واستقبلته عاصفة من الهتاف ، فتقدم من النار السرمدية وركع أمامها ، ثم استقام وسار الى « عشيرات » فركع مرة

ـرى ، ثم اعتلى العرش ، فبدأ حكمه !.. وراح القوم يرقصون ، ويتعانقون ، ويتبادلون القبلات فى شبق وصبابة .. وعلى سفح الجبل ـ خلف المعبد ـ انهمك العبيد فى رقص وحشى .. وفى أعالى الجبل ، زحف المجذومون ـ الذين بقيت فيهم بقية من قوة ـ فغادروا مغاراتهم ، وراحوا يلوحون بأخشاب مشتعلة .

ودقت الطبول ، فساد القوم صمت مفاجىء ، وشخصت الابصار الى عبيد أقبلوا من مكان تحت سلم الشرفة ، يتقدمهم ثور أسود عات ، راحوا يشدونه بحبال متينة ليكبحوا جماحه . وأطلق القوم صيحات حافلة بمشاعر مهتاجة . فقد كانت عملية اختيار « الكاهنة العليا » وشيكة البدء . وبين ظلال أعمدة الشرفة ، كانت خمس عذراوات ـ كل منهن الابنة الاولى لواحد من كهنة المعبد ـ يقفن فى الانتظار . **فقد كانت الشريعة تنص على أن تصبح كاهنة عليا ، وزوجة لبوثيا ، من تتغلب منهن على الثور .. أقوى ثيران « عشيرات » ، وأكثرها فحولة !**

وتقدمت أولاهن ، فساد الصمت المكان .. وان هى الا لحظة حتى غيب الثور قرنه فى صدرها ، فأسرع العبيد وخلصوها منه ، وحملها كاهن فرفعها نحو « عشيرات » ، ثم طوح بها الى النار السرمدية ، بين صيحات القوم .. ودقت الطبول ، فساد الصمت من جديد . وتقدمت عذراء ثانية ، فاتنة ، فى الثامنة عشرة من عمرها ، لم يمسسها بشر .. على أنها لم تكد ترى الثور حتى وجلت وتراجعت ، فهتف القوم : « انها خائفة ! » .. ثم تعالى صياحهم : « خائفة !.. ارموا بها الى المجذومين ! » .. وتبعتها العذراء الثالثة الى المصير ذاته .

وفى المرة الرابعة ، أقبلت « ديبون » فوقفت عند قمة السلم

فى جلال وشجاعة . ثم هبطت فسارت الى الثور ، ولم تقف الا على بضع بوصات منه . **وأرخى العبيد الحبال ، فظلت واقفة وثوبها الشفاف يكشف كل مفاتن جسمها ... وكانت فى السادسة عشرة ، ذات جمال مهيب ، فكأنها من الربات ، وليست من البشر !**

وثبتت بصرها فى عينى الثور وهى تبتسم ، فلم يتحرك .. فبسطت يدا رقيقة تحسست بها وجهه ، ولكنه لم يثر ولم يجفل . وفجأة ، خفض رأسه ، فشق قرناه غلالة العذراء ، ولكنها لم تخف - بينما شهق القوم مرتاعين - وانما تقدمت فطوقت عنق الثور بذراعها ، وكأنه حبيب !.. وانفجرت الهتافات من القوم ، ولكن « ديبون » بدت كالصماء لا تسمع ، وتحولت تقود الثور الى الحظيرة بخطوات رشيقة ، فارتج الجبل لهتافات القوم .. **وتضاعف هياجهم حين عادت اليهم العذراء فنضت عنها غلالتها ، وسارت عارية فجثت أمام « بوثيا » ، الذى بادر فأنهضها وناولها صولجان « عشيرات » !**

ستة أعوام مرت ، افتتن خلالها بوثيا بديبون . ولكنه لم يكن يتمالك ان يسائل نفسه أحيانا : « أكاهنة هذه ام ربة الشر ؟ .. أامرأة هى أم حية رقطاء ؟ » .. لقد فرضت عليه سلطانها منذ الليلة الاولى . وكثيرا ما غادر مخدعها متعثرا ، مفكك الاوصال ، وكأنه كلب مضروب . فلقد كانت ذات شهوة هوجاء ، ولم تكن تترفق به .. ولقد عرف نساء غيرها خلال تلك الاعوام - كما كان منتظرا منه ككاهن أعلى - وعرف كذلك رجالا كان يستقدمهم الى مخدعه من كهنة المعبد ، أو من شباب

أرقى أسرات المدينة ، ولكن أحدا منهم لم يحظ بشرف العودة الى مخدع الكاهن الاعلى مرة أخرى ، سوى « سوسيم » الجميل البديع الجسد ، المفتول العضلات . ومع ذلك ، فان « بوثيا » لم بفتتن بغير « ديبون » ، وقد أدركت هى ذلك فراحت تتأبى عليه ، وتتمرد على رغباته وسلطانه ، وتلقى بنفسها جهارا فى أحضان غيره من الرجال ، وهى تدرك انه لن يقوى على البطش بها ، فلقد كان يهيم بها ويشتهيها ، وقد أذله وجده ، فلم يكن يملك أن يستغنى عنها !

— ٢ —

• **جلس** « لوط » على التل مشرفا على خيام عشيرته ، ولم يبق الا يومان أو ثلاثة حتى يصلوا الى (سدوم) و (عمورة) — والرب ابراهيم الحمد — فيبدأوا عملية الاستقرار ، بما يصحبها من مشكلات معقدة . ولقد كبدهم اجتياز الجبال أكثر مما توقع « لوط » . على أن كل المتاعب انمحت حين قدر له أخيرا أن يقف عى قمة الجبل الاخير — فى عصر ذلك اليوم — ويطل على الوادى .. **الوادى الذى سماه ابراهيم بحق « وادى الرب » ، وها هو ذا يصبح « وادى لوط » ، فقد وهبه الرب اياه !** .. ولقد كان أهل (سدوم) يعمرونه ، ولكنهم كانوا عبدة أوثان ، ولن يرتضى الله أن يكون مثل هذا الوادى الرائع اوثنيين !.. ولكم كان لوط حكيما اذ اختار هذا الوادى ، حين دعاه ابراهيم لان يختار !.. لقد كان ابراهيم صادقا فى حبه له ، فقد اصطفاه ، وقربه اليه ، وعرفه بربه غير المنظور ، الذى وهبه سلطانا ، وثروة ، وحكمة .. ولقد كان هو الآخر يحب

ابراهيم ، أفلم يكن ابراهيم عمه ؟ .. وما كان ذنب لوط ان رعاته لم يستطيعوا أن يعيشوا فى سلام مع رعاة ابراهيم ، **فلما لم يستطع هذا أن يطيق الشقاق ، اقترح الفراق ، وترك له اختيار الاتجاه الذى يمضى فيه ، لينطلق هو فى اتجاه مضاد .. واختار لوط أن يذهب نحو اليسار ، الى الشرق ، حيث وادى الاردن الخصيب .**

وسرح لوط بصره الى حيث كانت زوجته .. ولاحت « اسكيا » كما لو كانت نائمة ، وهى تنظر فى النار بعينين نصف مغلقتين ، وقد أخذت تحلم . والى جوارها جلست ابنتاهما « نعمة » الرقيقة ، و « آبومى » الجميلة ، وقد استندت كل الى الاخرى لفرط التعب . وخلفهن جلست « بره » ، مربية الفتاتين النوبية .. وعلى مقربة ، جلس « جارو » العبد المصرى الذى وهبه ابراهيم للوط منذ صغره . لكم كان لوط قانعا بأهله هؤلاء !.. لقد كانت « اسكيا » فى سن تعادل نصف سنه ، ولكنه بوأها مكان الام من العشيرة ، وكانت له مطيعة ـ طوال السنوات الخمس عشرة التى قضياها معا ـ تنصاع له وتحترمه ، وترى فيه سيدا ، لا زوجا فحسب . ومن الصحيح أنها عجزت عن أن تلد له ولدا ذكرا ، ولكنه كان يعلل نفسه بأن المستقبل كفيل بأن يمنحهما ما يتوقان اليه . وكان ينشد السلوى عن البنين فيما يغدقه من حب على « نعمة » ـ التى كانت صورة من أمها « اسكيا » ـ و « آبومى » التى كانت تشبهه ، والتى كانت تكبر اختها بعام ، وقد اشرفت على الخامسة عشرة .

وقفز « جارو » على قدميه ، مشهرا حربته ، اذ انبعث

وقع قدمين على مقربة .. واذا برجل من العشيرة يتقدم الى « لوط » ليخبره بأن قافلة للتاجر « عبار » تمر بالمكان ، وان صاحبها يلتمس لقاءه . فقال لوط : « انني أعرفه . فهو من سدوم ، وانه لغني اريب ! » . فقال جارو : **« لست أحب أهل سدوم ، فهم قوم سوء .. لقد رأيت بعضهم في مصر منذ زمن بعيد . وهم يعبدون تمثالا من حجر يباركهم كلما ازدادوا فسوقا ! »** . على أن لوطا لم يصغ اليه ، بل سرح بصره يتأمل الوادى ، الى أن أقبل التاجر ، فبادر مرحبا بلوط وقومه فى كثير من الملق والمداهنة ، وأردف قائلا : « عسى أن يتم زواج بين ربك وربتى فيسود السلام قومينا ! » . فقال لوط فى اقتضاب : « قد يسود السلام قومينا اذا شئتم ، ولكن .. لا زواج ! »

ــ ان كل امرىء فى الوادى يعلم أنك قد خاصمت ابراهيم ، و ..

ــ لا خصام ، وانما هو فراق من أجل عشيرتينا . ولا يزال الحب بينى وبين ابراهيم قويا .

ــ لقد جئت أرحب بك ، واحمل الهدايا الى نسائك .

وقبل أن يعترضه « لوط » ، كان قد وضع أمام « اسكيا » وابنتيها بعض عطور الشمال ، وزيوت الغرب ، وبخور الشرق .. **ولمعت أعين النسوة ، بينما كان « عبار » يتأمل وجوههن السمراء التى كانت تتسم بالجمال ــ رغم خلوها من كل زينة ــ وأدرك من نظراتهن أن سبيله معهن أيسر منها مع لوط** . على أنه التفت الى هذا قائلا : « أما انت فأعدك بخدمات لا نهاية لها ، فلسوف ترى أن ما من خافية تخفى على « عبار » ، فى هذا الوادى ! »

ـ لست بحاجة الى خدماتك ..

ـ ان لدى بيتا بديعا ، خلف أسوار المدينة ، فاذا شئت ..

ـ قد أقيم مع قومى فى الحقول . ولكن كيف عرفت اننى انفصلت عن ابراهيم ؟

ـ ان هذا حديث الناس فى كل مكان ، فعندما يتشاجر عظيمان ..

وصاح لوط : « لم نتشاجر !.. وهل علم القوم فى سدوم وعمورة ؟» . فقال عبار : «اذا لم يكونوا قد علموا به،فسوف يعلمون الليلة ، اذ أرسلت ـ عندما لمحت نيران معسكرك ـ نبأ الى « بوثيا » ، الكاهن الاعلى ! »

ـ ان يكون بينى وبينه اتصال ..

ـ ولكنه حاكمنا ، ولن تستطيع أن تبتاع خيطا من العشب بدون اذنه . وهو الذى جعل وادينا رخاء ، وأهلنا فى هناء .

ـ **ان هناءكم اثم وشر ، فأنتم تعبدون ربة من حجر !**

ـ لست اريد ان أجادلك يا لوط النبيل ، فليقنع كل منا بالهه ، ولنحاول ان نكون على وفاق !.. لسوف ندخل المدينة ظهر باكر ، اذا ساعدنا الحظ .

ـ أما نحن فسنتأخر عنكم يومين أو ثلاثة .

ـ سأدبر لك كل شىء مع «بوثيا» ، وسأكون وسيطا بينكما ..

ـ وستحصل على ربح كبير !

فضحك عبار قائلا : « لست يا لوط الجليل زعيما دينيا مثلك ، وانما أنا تاجر ! » .. وقبل أن ينصرف ، التفت لوط الى زوجته وابنتيه ، فأمرهن بأن يعددن الهدايا الى التاجر .

ولم تغب عن الاخير الكآبة التى رانت على وجه « اسكيا » ، فلما فرغت من اعادة الاشياء اليه ، **دس فى يدها خفية قنينة صغيرة من الرخام ، فيها عطر ، وهو ينظر اليها نظرة ذات معنى ..**

وفى تلك اللحظة ، رددت جوانب الوادى صرخة ألم . ودب الهرج بين مضارب العشيرة ، وجاء شخص يقول ان ذئبا هاجم أحد الرعاة - ويدعى « قارون » - فعضه فى ذراعه .. فأمر « لوط » بحمل المصاب اليه ، وعنى بتضميد ذراعه بأعشاب خاصة ، و « عبار » يرقبه باهتمام ، حتى اذا فرغ قال له : « انه لن يستطيع أن يستخدم ذراعه ثانية ، وكان من الافضل أن تقتله ، كما نفعل فى سدوم » . فأجاب لوط : « نحن لا نحذو حذوكم ، وان تلبث الاعشاب أن تبرىء الجرح فى أيام قلائل ، فيعود قارون الى عمله ، ويظل مقدرا للصنيع ! »

- أتظن أن تقدير الصنيع يجعله رجلا صالحا ؟ .. ان العارف بالصنيع يظل يشعر بأنه مدين ، والمدين لا يستطيع أن يحب دائنه ، وأن يخلص له !

- قد يكون هذا بين قومك ، ولكنه ليس بين قومنا !

* * *

وعندما التفت « اسكيا » وابنتاها والمربيـة فى اغطيتهن واستلقين على مقربة من بقايا النار فى ذلك المساء ، **قالت نعمة : « ان التاجر رجل غريب ! »** . **وقالت آبومى : « يالعينيه ! انك لتخالين انه يرى الدنيا بأسرها حين يفتحهما ! »** . **فقالت اسكيا : « ما أكثر ما يرى ! »** .. وخيل اليها أن التعب الذى كانت تستشعره قد فارقها ، ولكنها تظاهرت بالنوم ، حتى

اذا اطمأنت الى نوم الجميع ، نادت « جارو » فأقبل عليها فى دهشة ، واذ ذاك سألته هامسة : « هل زرت (سدوم) و (عمورة) يوما يا جارو ؟ » .. فقال : « لا يا مولاتى ، ولكنى التقيت بكثير من أهلهما ، وعرفت طباعهم .. اكم أنا خائف منهم ! » .. فهمست : « حدثنى عنهم ، وعن مدينتهم .. وعن عشيرات ! »

وأخرجت قنينة العطر من ثنايا ثوبها ، فقربتها فى حذر من وجهها ، وهى تخفيها عن « جارو » .. وجعلتها كلماته ورائحة العطر تشعر وكأنها سكرى !

— ٣ —

• قال رسول « عبار » للكاهن الاعلى — فى ذلك المساء — ان لوطا قد بلغ الوادى بعشيرته ، بعد خصام دب بينه وبين ابراهيم ، وان « عبار » يعتقد أنه يعتزم الاستقرار فى الوادى !.. وتسابقت آلاف الافكار والخواطر فى رأس « بوثيا » ، فلم يلبث أن قال للرسول : « قل لعبار اننى أريد أن أراه بمجرد وصوله ! » .. حتى اذا انصرف الرسول ، خف بوثيا الى مخدع ديبون فأنهى اليها النبأ ، وأردف قائلا : « ان الامر يتوقف على نوايا لوط ! » . فقالت وهى تسخر منه : « وما لنواياه ؟.. اننا الحاكمان هنا ! » . ثم أردفت فى ضيق : « دع هذا الآن .. » ، ولكنه قال : ان للوط الها غير منظور .. اله ابراهيم ! .. انه اله يتحدث الى ابراهيم ، ويرسل اليه أرواحا تسمى الملائكة .. وقد يؤدى هذا الى خلاف بين قومى وقوم لوط » . فقالت : « لن يطول ذلك : ولسوف تتكفل

عشيرات بالامر ، أما الآن فانني أريدك لنفسى . أم ترانى أبعث فى طلب سواك ؟ » . وشد بوثيا على ذراعيها ، وقال : « لن تمسى سواى ، طالما كنت هنا ! »

.. وحاولت أن تتملص ، ولكنه تشبث بها ، وقد بدأ يغضب ـ وكانت تريده على أن يغضب ! ـ وأمسك بسوط ، فنضت غلالتها عن بدنها ، وقالت : « اضرب ! » . وكانت على شفتيها ابتسامة ظافرة .. وحملق فيها فى سخط ونقمة ، ولكن يده تخاذلت ، وهوى منها السوط .. كان يريد أن يضربها ، ولكنه لم يقو على ذلك ، فلم يملك سوى أن يشدها اليه بعنف وقوة . وأنشبت أظافرها فى ظهره . ولم يلمح ابتسامة النصر على شفتيها ، وهى تشعر بأنها قد فرضت عليه رغبتها !



— ٤ —

• **استأنفت** عشيرة « لوط » سيرها مع مطلع الفجر ، وقد حملت متاعها على أربعين عربة تجرها الثيران . وكان لوط وأسرته آخر المتحركين . وتأمل لوط القوم قبل أن يسير . كان يدرك أنهم — وهم حوالى ستمائة فرد — يعقدون آمالهم عليه ، فهو شيخهم الدينى ، وأبوهم الروحى ، وزعيمهم ، ومرشدهم ، وراعيهم ، وحاميهم .. كان كل الخير الذى يرتجون ، فقد كان حكيما ، خلق للزعامة والرئاسة ، وكان ابن أخى ابراهيم ، وكان أثيرا لديه ولدى ربه . ومن ثم فقد كانوا على استعداد لان يتبعوه أينما ذهب .. ولقد أشفق بعضهم من المستقبل حين دبت الفرقة فى الصفوف ، واضطر ابراهيم ولوط الى الانفصال ، وغشيهم قلق وتوجس ، ولكنهم راحوا يتطلعون الى لوط بثقة واطمئنان . وكانت ضخامة قامته تدعم هذه الثقة فى نفوسهم .

وهبط لوط التل وئيدا ، وهو يرقب عشيرته . لكم كان يحبهم !.. وكان مطمئن النفس الى أنه رحيم بهم فى حزم ، كريم فى عدل ، وكان يشرف على توزيع الثروة بينهم ، كل حسب حاجته !.. وراحت « اسكيا » ترقبه بدورها ، وتتبع عينيه حتى استقرتا على عربة معينة .. العربة التى كانت تحمل ذهب العشيرة وفضتها . ومدت اسكيا يدها فى اطواء ثيابها تتحسس شيئا ما . كان لديها هى الاخرى كنز تعتز به ، قنينة العطر !.. كانت فى ريب من أنها ستتمكن يوما من استخدام العطر ، ومع ذلك فقد اعتزت به . وكانت تدرك أن فى احتفاظها

بالقنينة خروجا على طاعة لوط ، وهى التى لم تعصه يوما ، بل كانت تدين له بحياتها ، وأفكارها ، ومعاييرها الخلقية ، وكل شىء .. فلقد قضت نصف عمرها زوجة له . ومن الصحيح أن صلتها به قد أضفت عليها عزة ومكانة ، ولكنها لم تتح لها هناء ، ولا متعة ، ولا نشوة .. وان لم تكن تعرف المشاعر ـ التى خالجتها ـ بهذه الاسماء !

لقد سمعت من ((جارو)) ـ فى الليلة السالفة ـ ان أهل (سدوم) كانوا يعيشون من أجل لذة الجسد فحسب ، وما عرفت هى يوما للجسد أية لذة وانما كانت تشعر بوخزات أليمة لا تدرك لها تفسيرا . وكانت لا تملك أن ترد عن خيالها ذكرى ذلك السدومى القصير ، المكرش ، ذى الوجه القذر ، الذى أرادها على أن تستبقى قنينة العطر ، وتآمر معها على اخفاء الامر عن زوجها .. لقد كانت نظراته اليها أشبه بومضات البرق !

* * *

وظلت العشيرة فى سيرها طيلة النهار ، اللهم الا فترة ـ حوالى الظهر ـ استراح خلالها القوم .. حتى اذا جنحت الشمس الى المغيب ، تناهى الى سمعهم خرير ماء ، فهرع الرسل الذين كانوا فى المقدمة الى لوط ينبئونه بأنهم بلغوا النقطة التى تنحدر فيها الارض مفضية من المنطقة الجبلية الى الوادى الخفيض .. فأمر لوط بالتوقف عن السير ، وراح يتأمل المنطقة فى انفعال .. وبدا وادى الله ، ومدينتا (سدوم) و (عمورة) ، وقد لفت الجميع غلالة من الغبار .. وكانت المدينتان تقبعان عند

أقدام التلال ، وكأنهما صيغتا من عاج ، على رقعة من مخمل أخضر . ورأى لوط الاسوار الحجرية المحيطة بالمدينتين ، والحقول ، والبساتين ، والكروم . وفطن من تأملاته على صوت « جارو » ينبهه الى جمع من اربعين أو خمسين شخصا ، كانوا يتسلقون أحد الجبال ، وبعضهم يتعثر ويتخبط ، وكأنه أعمى أو عاجز . وظل لوط يراقب الموكب الغريب ، وسرعان ما أدرك ما وراءه : كان القسم الاكبر منه يضم شيوخا طاعنين فى السن ، وعميانا ، ومشلولين . أما الباقون فكانوا حراسا ، يتبعهم فى المؤخرة رجلان فى عباءتين بيضاوين .. حتى اذا بلغوا قمة الجبل ، أشار الرجلان اللذان فى المؤخرة ، فأخذ الحراس يدفعون الآخرين الى الهوة السحيقة التى كان الجبل يشرف عليها .. **وارتجف لوط استنكارا ، وهو يسائل نفسه : « أتراهم مجرمين ؟ .. ولكنهم شيوخ ، وعميان ، ومشلولون ! اذن فلابد أن سدوم تتخلص بهذه الطريقة من المسنين والعجزة ! »** .. وسمع نهنهة بجواره فالتفت ، واذا « جارو » يتطلع اليه بعينين دامعتين ، بدا فيهما الخوف ، والشقاء ، والذهول .. وهتف العبد : « لا تقدنا الى سدوم وعمورة أيها السيد النبيل ! .. أبعدنا عن هذا الوادى ، فانه موطن شر واثم ! »

— ٥ —

• **ما أن** بلغ « عبار » متجره أخيرا ، حتى انهمك اعوانه فى نقل السلع ، بينما دلف هو الى حجرة داخلية ، فاذا ابنه « سوسيم » مع صديقه « كاريدا » جالسان .. وتطلع الولد الى أبيه فى حب مصطنع ، وقال : « اية هدايا جئتنى بها ؟ » .

فصاح عبار : « آتيك بهدايا وقد قعدت عن استقبالى عند أبواب المدينة ؟.. ثم ما حاجتك الى هدايا وانت الاثير لدى « بوثيا » ، وبوسعك أن تأخذ المعبد بكنوزه اذا شئت ؟ » ..
والحق أن « عبار » كان فخورا بأن ابنه كان أثيرا لدى الكاهن الاعلى ، وكان مدينا لهذا بقسط كبير من نجاحه هو . **ولقد كان عبار غنيا ، فازداد غنى بعد أن عشق الكاهن الاعلى « سوسيم » .. بل لقد أصبح « بوثيا » يستشير « عبار » فى كثير من الامور، ويعتمد عليه فى معرفة أنباء العالم المترامى فى خارج الوادى !..** ولقد عرف « سوسيم » بما عاد على أبيه من وراء حظوته هو لدى الكاهن الاعلى ، فأصبح يتدلل على «عبار» . كما فطن الى جماله الفتان ، وقوامه اللدن، والسحر الكامن فى نظراته وابتساماته ، فاستيقظ طموحه ، وأصبح يشعر بنوع جديد من الظمأ آلى على نفسه أن يرويه .. كان لديه المال ــ بوصفه ابن « عبار » ــ وكانت كل الابواب تفتح فى وجهه بوصفه خليل « بوثيا » ، وكانت القلوب ــ قلوب الرجال والنساء على السواء ــ تهيم به ، **فلم يبق سوى النفوذ والسلطان .. وكان المعبد هو مصدر النفوذ والسلطان ، ومن ثم راح الفتى يرسم خططه دون أن يفاتح بشأنها أحدا ،** حتى أباه وصديقه الحميم « كاريدا » ، وان حدسا هما ما كان يراوده ، فكانا أحيانا يشفقان عليه من طموحه !

وقبل أن يستقر بعبار المقام ، استدعى الى المعبد .. وركع بين يدى الكاهن الأعلى ، الذى استمطر بركات « عشيرات » عليه ، فأنبأه « عبار » بأن لوطا لن يلبث أن يصل بعد يومين ، وأنه قد اعتزم أن يقيم وعشيرته فى ربوع الوادى ، الذى كان

يعتقد أن رب ابراهيم قد منحه اياه . فتساءل الكاهن : « وكيف يعتزم أن يستولى على الوادى ؟ .. أبالقوة ؟ »

ـ ما أظن ، فان لوطا أحرى بأن يكون صديقا .. وقد تحدثت اليه بالامس ، وأرى أنه يؤمن بأن الهه غير المنظور سيتولى تدبير أمر الاستيلاء على الوادى !

ـ لن تسمح « عشيرات » بذلك .. ولن ارتضيه أنا !

ـ ولا أنا .. ولو سمحتم لى بأن امثلكم فى الصفقات التى يعقدها هنا ، لتكفلت بذلك . فان المدينتين ، والحقول ، والناس جميعا ملك لكم .. لقد تعاملت مع لوط فى الماضى ، فأنا أدرى الناس به . انه يطمئن الى ثروته أكثر مما يطمئن الى قوته ، واعتقد أنه أكثر استعدادا للنزول عن ذهبه ، منه عن دماء اتباعه .

ـ أراك قد حسبت لكل شيء حسابه ، فما خطتك ؟

ـ لنرحب بلوط كأخ ، وسأقنعه بأن من الخير أن نتبادل المنفعة عن أن نتحارب . وان الوادى لشاسع ، فلنعطه جزءا منه ، مقابل سعر نحدده . ولسوف يحتاج الى أمور كثيرة ، وان لديه من الذهب والفضة ما يكفى لكى يدفع الثمن . فدعه يمكث ايها الكاهن الاعلى طالما كان بوسعنا أن نفيد منه ، حتى اذا فرغ نفعه ، استطعنا أن نثير قومنا وقومه ضده . فان قومه قد عرفوا قبضة ابراهيم قبله ، وهو ليس فى قوة ابراهيم ، ولذلك فانه لن يلبث أن يطمعهم فى ضعفه !

— ٦ —

• **وعندما** اقترب قوم لوط من الوادى ، تقدم المحاربون

منهم زملاءهم . وبدا « لوط » قلقا ، متوجسا ، فان مشهد اعدام المسنين والعجزة بالقائهم من أعلى الجبل ، أحيا فى ذاكرته ما كان يعرفه عن أهل (سدوم) .. وكان رجاله مكدودين ، فخشى ما قد يترتب على ذلك من متاعب اذا شاء أهل سدوم أن يقابلوهم بقتال !

وكانت المدينة على استعداد منذ الصباح الباكر ، فاتخذ الحراس أماكنهم على الاسوار ، ونقل النبأ الى « بوثيا » بأن لوطا وقومه عند مشارف الوادى .. وأدرك « عبار » — حين أرسل اليه الكاهن الاعلى يأمره بأن يستقبل لوطا خارج أسوار المدينة — ان « بوثيا » قد أخذ برأيه ولم يشأ أن يكون بادئا بالعداء ..

وكانت الشمس فى السمت عندما وقفت العشيرة عند أسفل التل المشرف على سدوم ، على مائة ياردة من حراس المدينة المسلحين ، بينما تكأكأ أهل المدينة على الابواب .. وأقبل « عبار » فانحنى أمام لوط قائلا : « أهلا بك يالوط النبيل فى سدوم وعمورة .. كل شىء معد لكم ، وقد انابنى بوثيا عنه فى استقبالك ! » .. ولحظ أن عين لوط قد اتجهت صوب الحراس المسلحين ، فبادر قائلا : « انهم موكب استقبالك يا لوط ! » . فأجاب لوط : « وان رجالى لعلى استعداد لان يردوا التحية ! » . فضحك عبار قائلا : « ان عشيرات تدعونا الى السلام يا لوط القوى ، ولكم يسرنا أن تشاركونا خصب وادينا . أية خدمات استطيع أن اؤديها لكم ؟ » .. فقال لوط : « لسوف احتاج الى أشياء كثيرة .. سأحتاج أولا الى دار لاسرتى ، وحقول لعشيرتى ، ومراع لماشيتى »

ـ أما الدار فعندى ، وفى الوادى متسع للعشيرة والماشية .. وجدير بك أن تأوى الى الدار أولا ، لان نسوتك متعبات .

وفكر اوط قليلا ، ثم قال : « سيرافقنى جنودى ! » .. فقال عبار : « لمجرد المظهر اللائق ، وليس للحماية ، فلست بحاجة الى حماية فى سدوم وعمورة . وبينما ندخل المدينة ، أرجو ان تسمح لرجالى بأن يقودوا اتباعك الى الحقول الجنوبية ريثما تختار الارض التى تريد شراءها » . فقال اوط لامرأته وابنتيه : « اذهبن مع العشيرة ريثما اتفقد الدار ! »

واجتاز اوط ابواب المدينة ، وكأنه فاتح مظفر .. وتزاحم الناس يرمقونه ويتهامسون ، وهو مسدد بصره الى الامام ، وحراسه خلفه .. وتناهت الى أذنيه الهمسات : « ما أجملهم ! » .. « يالمتانة تركيبهم ، كأنهم فحول ! » . **وبرزت من الجمع فتاة لفت ذراعها حول ذراع أحد الحراس قائلة : « هذا الرجل لى ! » . ولوحت عجوز بزجاجة خمر من احدى النوافذ ، وهى تصيح : « هل كل رجالكم بهذا الجمال ؟ »** .. وقال عبار مبتسما : « أرأيت يالوط كيف نبدى لكم الود ؟ » . فأجاب لوط : « ماجئت أنشد ودا فى الوادى ، ولقد امرت قومى بأن لا يصاحبوا أهل سدوم ! » . وكانوا قد بلغوا ساحة السوق ، فبدا المعبد شاهقا فى أحد جوانبها ، وهنا وقف اوط قائلا : « ما أحسبك تقودنى الى المعبد ؟ .. لقد قلت لك ان لا شأن لى بالمعبد ولا بمعبودتكم ! » . فقال عبار فى ملق : « ولكن بوثيا تواق الى مقابلتك ، وقد أوفدنى لاستقبالك ! » . ولكن لوطا أجابه فى جفاء : « اننى اتقبل التحية ولا أقبل الصداقة ، فلا حاجة بنا الى ان نلتقى ! »

وسكت « عبار » على مضض .. وتحولوا الى الجانب الآخر من الساحة ، **فاعترضت طريق الموكب امرأة ثملة ، نضت عنها ثوبها ، وحاولت أن ترتمى على لوط لولا أن تقدم جندى سدومى فجذبها جانبا !** وواصلوا سيرهم من شارع الى شارع ، حتى بلغوا طرفا من المدينة تحت سفح الجبل ، ولوط متأفف لما كان بصره يقع عليه من مناظر العرى والمجون . وما لبثوا ان بلغوا الدار ، فاذا بها منعزلة ، تقوم وسط حديقة واسعة ، وارفة الظلال ، وكان المبنى يضم خمس غرف . وما أن اعجب به لوط ، حتى تحول الى عبار يسأله عن ثمنه ، فأجابه : « عشرون مثقالا من الفضة » . فضحك لوط قائلا : « اننى لاشترى المعبد بهذا الثمن » .. وبعد مساومة ، أصر لوط على أن لا يدفع أكثر من ستة عشر مثقالا من الفضة ، فتظاهر التاجر الماكر بأنه ينصاع كارها .

واذ انصرف عبار ، تحول لوط الى « جارو » يأمره بأن يحضر زوجته وابنتيه الى الدار . وتلكأ جارو برهة ، ثم قال : « لا تبتع هذه الدار يا مولاى .. ان هذه مدينة سوء ، فلنبتعد عنها والا أصبحنا كأهلها ! » . فأجاب لوط : « لاتخش شرا ، فأنا أعرف أهل سدوم ، ولست أحسب لهم حسابا .. أنسيت أن الله هو الذى رغب فى أن نكون هنا ، وهو الذى سيرعانا ؟ »

— ٧ —

• **ما ان** انصرف « جارو » ، حتى خلا لوط الى نفسه ، فانصرف بقلبه الى ربه ، وما لبث أن قلب طرفه فى السماء ، ثم تحركت شفتاه تتمتمان : « يارب ابراهيم ، ارع عبدك بين

هؤلاء الاغراب الذين قدته اليهم .. اهده كما هديت ابراهيم ، وأرشده الى ماتبغى ان يفعل ، واكشف له عن وجهك ، واسمعه صوتك !.. اللهم احمنى وقومى من شرور هذا المكان ! »

وكان أهل (سدوم) فى الانتظار ، فما أن رأوا نسوة لوط ، حتى صاح أحدهم : « أنظروا الى ملابسهن ! » . ولوح نحوهن قائلا : « أأنتن فى حزن على عشاقكن ؟ » .. والتفت سوسيم الى صديقه كاريدا ، وهتف : « كنت أعرف أن لوطا غنى ، ولكنى لم أكن أحسبه من أصحاب التحف ! » . فقال كاريدا : « انهن جميلات !.. انظر الى صغراهن ! لم أر فى حياتى من هى فى جمالها ! » .. **وشق سوسيم لنفسه طريقا بين القوم ، فأفسحوا لخليل الكاهن الاعلى ، ثم اندفع فطوق خصر « نعمة » قائلا : « مرحبا بكن فى سدوم وعمورة ! » ، وقبلها .. فأسرع محاربو لوط يدفعونه عنها ، بينما تبعه بصر « نعمة » دون وعى منها !**

ونظر سوسيم الى « اسكيا » ، وعلى شفتيه ابتسامة واهنة ، فأشاحت امرأة لوط اذ شعرت بحرارة نظراته ، فاتسعت ابتسامته .. كانت ابتسامة طالما فتنت قومه ، وقد اعتاد أن يطمئن الى سحرها !

وارتاحت اسكيا اذ انتهى الركب الى الدار ، وقد عولت على ان لاتنبىء لوطا — ولو مؤقتا — بما حدث ، لانها لم تكن على يقين من حقيقة مشاعرها ازاء هذا الذى حدث . وكانت تخشى أن تبالغ فى تقدير بشاعة الامر ، أمام ابنتيها .. ياالعينى الفتى ، ويالشفتيه !.. لقد نظر اليها ببساطة ، وكأنه لم يأت ذنبا . ومع ذلك ، فقد كان عمله اثما عظيما ، لو ان الذى ارتكبه كان

أحد رجال لوط لاقصى عن العشيرة فورا !.. **واستقر رأيها على أن خير ما ينبغى أن تفعل هو أن تحكم الرقابة على ابنتيها ، فلا تخبر زوجها بالامر الا اذا حاول سوسيم أن يمضى فى غيه !**

وقال الكاهن الاعلى اذ انهى اليه عبار نبأ الصفقة الاولى : « انك لم تفد كثيرا من لوط » . فقال التاجر الماكر : « رأيت أن أتساهل لاستدرجه ! » .. وابتسم بوثيا قائلا : « سأعفيك من الضريبة عن هـذه الصفقة ، لاظهر لك رضاء عشـيرات ورضائى ! .. وبهذه المناسبة ، أننى لم ار ابنك منذ زمن ، فمره ان يوافينى الليلة ! »

— ٨ —

• **دلف** « سوسيم » الى المعبد ، فلم يعترض أحـد من الحراس طريقه ، وهم الذين لم يكونوا يسمحون لاحدبالدخول بمجرد أن يجن الليل .. واجتاز الشرفة ، ثم انحرف الى سرداب كان يمتد تحت الارض ، ويتفرع الى طريقين : أحدهما يفضى الى القسم المخصص لبوثيا وديبون ، والآخر الى قلب المدينة .. وكان استخدام هذا السرداب محرماعلى غيرالكاهن الاعلى وزوجته ، والكن « سوسيم » كان ذا مكانة خاصة !

ومر فى سبيله بمخدع الكاهنة العليا ، فاذا الباب مفتوح ، وهى مضطجعة فى صدر المكان . والتقى بصره ببصرها ، فانحنى تحية لها . **وخفضت الكأس التى كانت ترفعها الى شفتيها — اذ رأته — وأشارت اليه أن يدخل ، وفى عينيها وميض غريب ..**

ثم قالت : « ألست ابن التاجر ؟.. لقد رأيتك فى عيدالقرابين ، وسألت عنك ! » .. وتجلى فى نظراتها فضول متراخ ، وهى

تردف : « لماذا لا أراك ؟ » . فأجاب سوسيم : « لست أهلا لعينيك ايتها الكاهنة العليا ! » . وابتسمت لرده اللبق ، وقالت : « بل ان منظرك يروق لعينى !.. ما الذى اتى بك الى المعبد ؟ » . فأجاب : « لقد استدعانى الكاهن الاعلى .. انه شرف حظيت به مرات ! »

ورفعت حاجبيها دهشة ، وقالت : « بل هو شرف غير عادى ! » . ووضعت كأسها على نضد ، ونهضت فسارت اليه ، وراحت تتأمله .. وابتسم ابتسامته التى كان يدرك سحرها ، فازدادت تفرسا فيه ، وقد ثار فضولها وانانيتها . لقد كان يحلو لها دائما أن تظهر سلطانها على « بوثيا » ، فعولت على أن تستخلص هذا الفتى الفاتن لنفسها .. **على ان جمال « سوسيم » أثار فى نفسها مشاعر أخرى ، فاذا بها – لاول مرة فى حياتها – تهفو الى أن تغوى رجلا بفتنتها هى وحسنها ، لا بنفوذها ومكانتها !** وكانت تدرك أنه لا يجرؤ على أن يمسها بدون اذن منها ، فرغبت فى ان يتجرأ ويتواقح معها ، كما يفعل مع أية انثى تروق له !.. ولقد أدرك « سوسيم » بغيتها ، فان محاولة الاناث – بل والذكور – اغواءه لم تكن بالشىء الجديد عليه ، لذلك صمم على ان لايكون المبادر ، وعلى ان لايستسلم لها بسرعة ، اذ كان خبيرا بأن الذى يجهد فى اغوائه ، يصبح أسلس قيادا من سواه .

وقالت ديبون : « سمعت أن لك عشاقا وعشيقات ، فمن منهم الاثير لديك ؟ » . فأجاب سوسيم بدهاء : « اعتقد أن دعوة الكاهن الاعلى ترفعه على كل من عداه ! » . ولمعت عيناها بلهب الغيرة ، وقالت : « وهل ثمة انثى ؟ » . فأجاب وهو

ماض فى خبثه : « لا ، اللهم الا ..! » . وسكت مترددا ، فهتفت تشجعه وهى تزداد اقترابا منه : « تكلم ! » . وتظاهر بالخوف .. ورمقها لحظة ، وكأنه يزن الامر بميزان العقل والحكمة ، ثم قال : « ليس لاحد أن يبلغ مبلغ الكاهن الاعلى الا .. » . وسكت لحظة أخرى ، ثم أردف : « كل امرىء يعلم أن أجمل نساء الوادى هى .. الكاهنة العليا . وما من رجل الا يحلم بأن يحظى بأن تدعوه اليها ! » .. **فتساءلت : « وأنت ؟ » . وأجاب : « لست مختلفا عن غيرى من الرجال » . فقالت : « بل أنت مختلف .. ولماذا لم تطلعنى على رغبتك ؟ » .**

ـ ما كنت لاجسر على هذا ..

ـ وهل كنت تشتهينى ، لو اننى لم أكن كاهنة عليا ؟

وكانت عيناه لا تتحولان عن عينيها .. وأدرك أن فرصته قد سنحت ، فرفع يديه ، وراح يتحسس كتفيها برفق . وأذهلها رفقه هذا ، فقد كانت تتوقع اندفاعا منه . واغمضت عينيها ، ورفعت فمها نحوه ، ولكنه لم ينقض على شفتيها .. وازاحت غلالتها عن جسمها ، فأخذ يتحسسه فى نعومة . وجذبته نحوها ، وهى تهمس : « الدم ! » .. لقد اعتادت أن لا تنتشى الا اذا ضربت بالسوط حتى يسيل الدم من بدنها ، **ولكن « سوسيم » أبى عليها ذلك ، فقد كان يؤثر طريقته .. اللمسات الخفيفة ، الرقيقة ، الناعمة ، التى تدفع الدم حارا فى كل البدن ، لا خارج البدن !** .. واذ اشتد اندفاع الدم حتى ألهب حواسها ، راحت تضربه بجماع قبضتيها ، وهى تهمس بصوت متحشرج : « اكرهك ! »

.. وادرك ان الثمرة قد حان قطافها !

— ٩ —

• كانت الحقول المنبسطة جنوبى المدينة أجمل من كل ما قد يخطر بالبال ، ولكن أهل (سدوم) لم يكونوا أهل عمل وجهد ، فأهملوها .. وأدرك عبار من نظرات لوط أنه عرف قيمتها ، وانه لن يرتضى عنها بديلا ، فراح يساومه فى لباقة ودهاء ، ثم قال : « اخشى اننى لا أملك البت فى أمر هذه الارض يالوط ، فهى ملك للمعبد ، ولابد من استشارة الكاهن الاعلى ! »

— ولكنى أريد هذه الارض ، فقل لكاهنك الاعلى أن يقدر الثمن الذى يبتغيه !

— اسوف يكون غاليا .. وما أحسبه يقل عن مائتى مثقال من الذهب !

ووجد عبار عناء فى أن يتمالك نفسه ، عندما أخذت العزة لوطا فأعلن أنه على استعداد لان يدفع الثمن .. وكان تسرعه فى قبول هذا الثمن الذى غالى غريمه فيه ، دليلا على تلهفه على نيل الارض . وما أن انصرف ، حتى قال جارو لمولاه : « انك لتدفع بسخاء يا مولاى » . فقال لوط : « أعرف هذا ، وقد ذكرت مرارا يا جارو ان الله — اله ابراهيم — راغب فى أن تكون هذه الارض لنا » . فعاد العبد يقول مترددا : « وهب ان الكاهن الاعلى رفض أن يبيعها ؟ » . فكان جواب لوط : « اذ ذاك نحارب من أجلها ! » .. ولكن رجاله كانوا متعبين من الرحلة الطويلة . وما كان لوط يجهل ذلك ، فشاء أن يشترى راحتهم بالسخاء فى الثمن .

— ١٠ —

• **كان** الكاهن الاعلى ثائرا ، عندما أقتيد «عبار» الى غرفته ، فلقد ظل يرتقب « سوسيم » طويلا — فى الليلة السالفة — دون أن يوافيه ، وهو الذى اعتاد أن تكون رغبته أمرا واجب التنفيذ !.. وزاده غيظا أنه ظل يسمع طيلة الليل أصواتا فى مخدع « ديبون » ، فكانت الكاهنة العليا تلهو وهو محروم ، وقد منعه من أن يذهب اليها أنه ظل يأمل أن يوافيه «سوسيم» .. وراح يغالب الضجر بالخمر ، حتى صرعته ، فلم يستيقظ الا وقد انتصف النهار التالى .. وكان أول ما فعله أن استدعى « موام » القائم على ادارة شئون المعبد ، وقال له :

— ارسل فى استدعاء عبار التاجر فورا ، ومر رجالا بالذهاب الى المدينة ليتجسسوا اين قضى « سوسيم » الليلة السالفة .. وسل عبيد الكاهنة العليا عمن كان معها بالامس .. والآن ، ماذا لديك ؟

— لقد ذهب لوط صباح اليوم الى الحقول التى نزل فيها قومه ، وترك نسوته فى الدار ، بعد أن أقام عشرة من المحاربين على حراستها . ولقد ذهب رعاياك ليلة الامس الى الدار ، فصدهم الحراس ..

— وما شكل هؤلاء النسوة ؟

— وجوه بلا زينة ، ولكنها جميلة .. وأجساد ملتفة فى غلائل طويلة لا تشف عن شىء .. ولكنهن جذابات ، وبشرتهن أخف من بشرة نسائنا . ثم أن الصغيرتين منهن بلا رجال ،

ويقال انهما عذراوان !

ودهش بوثيا ، فما كان من المألوف فى (سدوم) أن تظل الصبايا عذراوات ، سيما اذا كن « جذابات » .. **بل ان العذرية كانت تزهد أهل المدينة الآثمة فى الانثى ، لانها تعنى أن تلك الانثى غير مدربة ولا خبيرة بفنون الهوى !..** ولكن تفكيره فى نساء لوط لم يصرفه عن غضبه ، فلما اقبل عبار ، استقبله متجهما . وأدرك التاجر أن صاحب السلطان الاعلى فى المدينة غاضب ، فأراد أن يسرى عنه بأن يطلعه على الصفقة التى عرضها على لوط لقاء الحقول الجنوبية ، ولم ينس أن يذكر له نصف الثمن الذى قبله لوط ، ليفيد من الفرق !.. فضحك الكاهن وقال : « انك لص يا عبار !.. أما وقد قبل لوط الثمن ، فلك أن تحتفظ بخمسة مثاقيل ، لقاء تعبك ! » . ودهش عبار لهذا الكرم ، فقال : « ان الكاهن الاعلى اسخى الناس ! » . ولكن بوثيا أجابه : « لست من السخاء كما تظن ، فلا تنس أن لتمثيلك المعبد فى الصفقة ضريبة يجب أن تؤديها ! »

***

وتحول الكاهن الاعلى قائلا : « انك سعيد الحظ ، **فقد** انقذك هذا النبأ من غضب كان خليقا بأن يحيق بك .. لماذا لم تنبىء ابنك بالامس بما أمرتك به ؟ » . وجزع عبار ، وراح **يؤكد** له انه حمل الامر الى ابنه ، ولا بد ان **عقبات لاتقاوم حالت** دون أن يلبى « سوسيم » الرغبة السامية .. ثم اندفع التاجر الي المدينة يبحث عن ابنه ، وانهال عليه لوما وتقريعا ، ولكن

الفتى هز كتفيه فى قحة ، وقال : « لقد كنت فى المعبد ، ولكن .. مع الكاهنة العليا ! » .

وذهل عبار ، فراح يتمتم : « أيها المجنون ، الغشاش !.. لسوف نلقى جميعا حتفنا من جراء ذلك !.. أفتتخلى عن اطاعة الكاهن الاعلى لتقضى الليل مع الكاهنة العليا ؟ » .. واخذ ينهال بالاسئلة على « سوسيم » فلما تأكد ان هذه كانت رغبة « ديبون » نفسها ، وان أحدا لم يره لانه سلك السرداب السرى ، قال له : « اذن فاذهب لفورك والتمس لقاء الكاهن الاعلى ، وتضرع اليه ان يغفر لك ، وازعم له ان بعض الاصدقاء استوقفوك — وانت فى طريقك اليه — وسقوك خمرا ، فلم تلبث أن فقدت الرشد !.. أما الحراس الخارجيون ، الذين صادفتهم عند الابواب الخارجية ، فسأتكفل بهم .. واخضع لكل مايأمرك به بوثيا ! »

واغتسل سوسيم واتخذ زينته ، ثم سعى الى المعبد ، وهو ناقم على أبيه .. فقد أدرك أنه كان خائفا على نفسه وتجارته من غضبة بوثيا ، أكثر مما كان خائفا عليه هو !.. ولم يكن يخفف عنه انفعالاته ، ويهون من الحوافز المتمردة التى بدأت تثور فى نفسه ، سوى ذكرى الليلة التى قضاها مع «ديبون» ، وما قالته له وهو يتأهب للانصراف من لدنها : « ما عرفت لك مثيلا يا سوسيم من قبل ، ولسوف استدعيك كلما شئت .. وسأحقق لك كل ما تتمنى ، فاطلب ما تبغى ! » .. ولقد سألها سوسيم اذ ذاك : « والكاهن الاعلى ؟! » . فهزت كتفيها قائلة : « انه عبدى ، ولن يتردد فى أن يرتضى كل ما أريد ، فلا تهتم به .. انت كاهنى الاعلى منذ اليوم ! »

— ١١ —

• **جلست** « اسكيا » وحيـدة الى جوار بركة الماء – فى حديقة الدار – وقد نام كل من كان فى البيت .. كانت قد اضطربت حين جاءها « قارون » لينبئها بأن لوطا قد اعتزم قضاء الليل فى الحقول ، وانه منوط بأن يرافقها اليه فى اليوم التالى . لقد كانت تشعر فى وجود « لوط » بأمان ، لا سيما فى هذه المدينة الوثنية !.. وأثارت الليلة القمرية الهادئة فى نفس « اسكيا » حنينا الى رجلها ، وكانت تعلم مدى شوقه الى أن يكون له ولد ذكر ، ولكن لوطا لم يكن يوما بالعاشق الشاعرى المزاج ، وان كان حفيا بها ، كريما معها .. **وكانت هى – فى تلك الليلة – بحاجة الى ما هـو أكثر من الحفاوة والكرم !.. كانت تفتقد شيئا ما ، طالما ساورها الحنين اليه فى السنوات الاخيرة !**

ونهضت « اسكيا » أخيرا ، فدارت حول البركة ، ثم راحت تجوس خلال الاشجار ، على غير هدى . وفجأة ، لمحت خيالها على الارض ، فوقفت تتأمله . ثم رفعت ذراعيها ، فرفع الخيال ذراعيه ، وتمايلت فتمايل الخيال ، ودارت حول نفسها فدار حول نفسه ، وبسطت ذراعيها أمامها ، ثم مالت برأسها الى الخلف ، وحملقت فى السماء .. وما فطنت الى أن هنـاك من كان يرقبها من ثنايا الظلام . فان الحديث عن نساء لوط أثار فضول الكاهن الاعلى ، فكمن فى المنزل المقابل يتحين نظـرة اليهن . وكان قد أقام كهنة فى هذا المنزل لمراقبة لوط ، مذ

وفد على المدينة ، فلما علم انه أزمع أن يقضى ليلته تلك في الحقول ، كمن في الدار ، فرأى « اسكيا » في الحديقة .. وهاجه منظرها فى جلستها الحالمة ، وفى هيامها بين الاشجار ، وفى حركاتها .. وتمنى لو عرف ما كان يراودها من أفكار وأحلام ، وقد اشتم انها كانت تعانى حنينا ما ، وانها كانت تستشعر وحشة تهفو بأعصابها وأحاسيسها !

وواصلت اسكيا تجوالها حتى بلغت البـاب الخارجى ، فلم تجد أحدا من الحراس .. واستندت الى الباب ، وراحت تتأمل الطريق ، فاذا بها خالية هادئة .. وفتحت الباب ، فخطت الى خارجه ، ثم وقفت تتفرس فيمـا حولها . واذ اطمأنت ، طمعت فى مزيد من التحرر ، فسارت على مهل مترددة ، نحو قلب المدينة .. وانفلت بوثيا من مكمنه ، وراح يتبعها عن بعد !.. وما لبثت « اسكيا » أن أحست بخطوات خلفها أخرجتها من حلمها رغم خفة وقعها . وظنته فى البداية أحد الحراس ، ووقفت ، فوقف .. ولمحت ثوبه أبيض يتألق فى الظـلام الذى كان ضوء القمر الواهن يحاول أن يبدده . واقترب الرجل ، فغشيها خوف اذ تأكدت أنه من أهل سدوم ، ولكنها لم تكن تملك سبيلا الى العودة ، فجمدت فى مكانها .. وازداد الرجل اقترابا ، حتى وقف على بعد أقدام منها .. وما لبث أن قال فى صوت خافت : « اننى أحب أمثال هـذه الليلة الهادئة ، الدافئة ! » .. ولم تتكلم . فعاد يقول فى رجاء : « لا تخافينى فلن أمسك بسـوء .. لست أبغى سوى أن أتكلم ! » .. ولم تنبس ببنت شفة ، وقد اشتد خوفها . وتساءل : « أتريدين أن أنصرف ؟ » .. وكان الصمت جوابها



عليه . فلما أعياه الانتظار ، سألها : « هل نتمشى قليلا ؟ »

وخطت اسكيا جانبا ،وقالت والخوف يملأ جوانحها : « أريد أن أعود » . فقال ضارعا : « بل امكثى معى ! » .. فقالت : «من الخطأ أن أكون معك هنا» . **ولكنه قال : « أنه لخطأ أكبر أن ننكر نفسينا !» ..وارتجف صوته وهو يمضى قائلا : « سأدعك تعودين ، ولكن .. دعينى أراك ثانية ! » . فقالت: « لا .. يجب ألا أراك أبدا » .**

ولم تكن ثمة قوة تحول دون أن يتقدم ، فيمسك بيدها ويرفعها الى شفتيه .. ثم أفلتها ، فأسرعت عائدة وهو يتبعها عن كثب .. وكان الحارس منكمشا الى جوار الباب ، وقد استغرق فى النوم، فتسللت الى الداخل، وأسرعت الى غرفتها .

— ١٢ —

• فى تلك الليلة ، كان « كاريدا » يقف على سفح الجبل المجاور لدار لوط ، يتطلع الى المبنى فى شوق وحنين .. لقد رأى هو الآخر زوجة لوط وهى تهيم فى الحديقة . وما لبث الحارس أن جال حول البيت جولة ، ثم اختفى .. ورأى « كاريدا » المرأة وهى تقترب من الباب ، ثم وهى تبرحه وتسير فى الشارع . وما لبث أن رأى رجلا فى ثوب أبيض يتبعها . ولم يستطع أن يتعرف على الرجل ، ولكنه لم يشغل باله به ، اذ وجد الفرصة سانحة لمغامرة جريئة . فلقد تدله فى هوى « آبومى » — الابنة الكبرى للوط — مذ رآها عند وفودها الى المدينة ، ولكنه لم يجسر على أن يقبلها كما فعل سوسيم بأختها !

وهبط السفح فى هدوء ، ثم تسلل خلال باب الدار فى حذر ، بعد أن اطمأن الى بعد الحارس .. ويمم شطر المبنى ، ثم أخذ يطل فى الغرف كاللص ، حتى وجد الغرفة التى كانت الفتاتان تنامان فيها .. **وكانت « آبومى » تنام مولية وجهها شطر الباب ، فتسلل بخفة ، وجثا على الارض ، وراح يتأمل وجهها ، ويتحرق شوقا الى أن يقبل شفتيها الشهيتين** . ولكنه ظل قابعا يتأملها فى صمت ، حتى نبهه صياح ديك الى اقتراب الفجر . وإذ ذاك وقف ، ثم خلع عن رقبته قلادة ذهبية كانت تنتهى بتمثال دقيق لعشيرات ، كان من أغلى ما يعتز به ، فدلاها برفق وحذر ، حتى استقرت فى صدر ثوب «آبومى» ، بين نهديها .. وأسرع يغادر الغرفة ، ثم تسلل من الدار كلص

هارب .. وفيما هو يجتاز الحديقة ، أبصر شبح امرأة مقبلة من الخارج ، فتوارى بين الاشجار .. كانت نفس المرأة التى رآها تبارح الدار .. وتبين – فى هذه المرة – انها « اسكيا » !

وما أن اطمأن الى أنها قد غابت داخل المبنى ، حتى انفلت خارجا . ورأى الحارس منكمشا ، نائما بجوار الباب ، فانطلق فى الطريق بخطى سريعة . وفجأة ، لمح شبحا فى ثوب أبيض ، يسير أمامه .. وخيل اليه أنه يعرف صاحب الشبح ، ولكنه لم يشأ أن يلحق به ، بل تبعه فى هدوء ، حتى رآه يغيب عن بصره ، عند المعبد . وهتف كاريدا فى نفسه : « لا !.. من المستحيل أن يكون الكاهن الاعلى ! » .. وخفق قلبه بعنف ، وهو يقول لنفسه : « ولكنه هو ، لاشك فى هذا ! » . واشتد خفقان قلبه ، وقد خطرت بباله فكرة : « ..وزوجة لوط ؟! » . وأسرع نحو داره ، وهو يجاهد ليطرد الفكرة من ذهنه !

– ١٣ –

• **استيقظت** « اسكيا » فى ساعة متأخرة من الصباح ، ولكنها ظلت مسترخية فى فراشها لا تبرحه ، وقد راح ذهنها يستعرض ما حدث فى الليلة الماضية .. وجمد قلبها خوفا وهى تتذكر ذلك الغريب . واستولى عليها ندم عارم ، وهى تتبين مدى الذنب الذى ارتكبته ، اذ سمحت له بأن يقبل أصابعها !.. وزاد من بشاعة الذنب فى نظرها ، ان الرجل كان من أهل (سدوم) .. وتمنت لو أنها لم تكن قد ولدت ، اذ تصورته وهو يروى لاصدقائه مغامرته مع امرأة لوط ، فلا يلبث الامر أن ينتشر فى المدينة ، وأن يبلغ قومها ، ويبلغ لوطا ،

ويبلغ ابنتيها .. ياللطامة الكبرى ! .. **وزادها عذابا انها لم تكن تدرى ما حملها على ان تفعل ما فعلت . لماذا خرجت وحدها ــ وفى الظلام ــ الى المدينة الآثمة ؟.. انها أول مرة يمسك فيها غريب يدها ويقبلها ، فلماذا لم تصده ، ولماذا لم تهرب منه ؟.. بل الانكى من هذا ، لماذا لم تشعر باستنكار حين فعل ؟**

واقبلت الجارية «برة» تذكرها بأن قارون كان فى انتظارها ، ليرافقها الى الحقول ، فانتزعت نفسها من فراشها ، واغتسلت ، ثم سارت الى مخدع ابنتيها فلم تجدهما . وجاست خلال الدار بحثا عنهما ، ثم دلفت الى الحديقة ، فألفتهما هناك . ولم تشعرا بها وهى تقترب .. وكانت نعمة تسائل اختها : «ولكن ، كيف تراك ستفسرين وجود القلادة ؟ » . وأجابت آبومى : « وماذا املك ؟ لقد استيقظت فوجدتها على صدرى !.. اننى أعرف أن أمى لن تصدقنى ، ولكن ما حيلتى ؟ »

ــ لابد أن أحدا وضعها هناك .. ولم يكن فى الدار احد . أفتظنين ان بوسع احد من السدوميين ان يتسلل الى داخل الدار ؟

ــ كيف وعلى الباب حارس ؟

ــ اذن ، فليس هناك سوى شخص واحد .. قارون ؟

ــ الراعى ؟!.. انه ليعرف أن من المحرم أن يكلمنا دون اذن من امنا أو أبينا ، كما انه لا يجسر ، سيما بعد أن انقذ أبونا حياته !

وتقدمت أمهما فى تلك اللحظة ، فأسرعت آبومى تدس شيئا فى ثنايا ثوبها ، ولكن اسكيا هتفت : « ما هذا يا آبومى ؟ ..

هاتيه ! » . واجفلت الفتاتان ، ونظرت كل منهما للأخرى ، ولكن آبومى لم تكن تملك سوى أن تطيع ، فأسلمت أمها القلادة .. وتأملتها اسكيا ، وهى تتساءل : « من أين لك هذه ؟ » . وروت لها الفتاة القصة ، ولكن اسكيا أبت أن تصدقها . وجزعت نعمة .. واغرورقت عينا آبومى ، ثم قالت بصوت متهدج : « اقسم لك يا أماه اننى وجدتها على صدرى حين استيقظت ! » .. وخفت نعمة الى نجدتها ، فقالت : « لا بد أن قارون هو الذى وضعها ! » . وهتفت اسكيا مبهوتة : « قارون ؟.. كيف ؟ ولماذا ؟ »

— لست ادرى بل لست أجزم . ولكنه كان الرجل الوحيد فى الدار !

وتنهدت اسكيا فى حيرة .. أمن المعقول أن يكون قارون قد تسلل الى الدار ليلا ؟.. واذا صح هذا ، أفلا يكون قد تفقد حجرتها ولم يجدها فى مضجعها ؟.. أتراه قد عرف ما جرى لها ؟ فماذا يكون من أمرها لو أنه أخبر أحدا ، وانتشر النبأ حتى تناهى الى أذنى لوط ؟ .. ثم ماذا يكون من أمرها حين يعلم لوط أنها كتمت عنه ما فعله ابن التاجر اذ قبل « نعمة » يوم وصولهن الى المدينة ؟.. من المحتمل أن يكون أحد السدوميين قد تسلل الى مخدع الفتاتين ، ولكن .. أكان أى سدومى يقنع بمجرد ترك القلادة ؟.. **انه ولا بد «قارون» ، فهو الوحيد الذى كان يمكن أن يهيم بابنة لوط دون أن يجرؤ على أن يمسها ، لانها ابنة سيد العشيرة ! .. ولكن ، ماذا يحدث لو انها أنهت الامر الى لوط ، فتحدث قارون عن تسللها هى من الدار ليلا ؟**

وزادها حيرة ان قارون بدا ساكن النفس ، برىء النظرات ،

حين رافقها الى الحقول فى ذلك النهار . وقضت يومها تفكر مهمومة ، حتى اذا أتى المساء ، كانت قد استقرت على أمر . فلما خلت الى لوط ، دفعت اليه بالقلادة فتأملها ، ثم سألها : « من أين لك هـذه ؟ » . فأجابت : « من آبومى » . وعاد يسألها : « وكيف حصلت عليها ؟ » .. واستجمعت اسكيا كل جرأتها ، وراحت تقول : « **لقد سمعت وقع قدمين ، فى بهيم ليل أمس ، فتطلعت خلال باب مخدعى ، ورأيت رجلا يلج مخدع الفتاتين** .. ولم يمكث الا لمحة من الزمن ، حتى اذا عاد ادراجه ، رأيت على ضـوء القمـر انه قارون ! .. وفى الصباح ، وجدت آبومى القلادة على صدرها ! »

وصاح لوط منفعلا : « هل ذهب قارون الى غرفة ابنتى وهما نائمتان ؟.. امتأكدة انت من ذلك ؟ » . فأجابت بجرأة : « لقدرأيته بعينى ! » .. وسرعان ما أمر لوط باستدعاء قارون ، ثم بادره متسائلا ، وهو يلوح له بالقلادة : « من أين لك هذه ؟ » .. ولم يبد على وجه قارون سوى دهشة بريئة ، وقال : « أنا يا مولاى ؟.. اننى لم أرها من قبل ! » . وعبثا حاول أن يقنع لوطا بأنه لم يكن يعرف عن القلادة شيئا ، وبأنه لم يذهب ـ ولا كان يجرؤ على مجرد التفكير فى أن يذهب ـ الى مخدع ابنتى سيد القبيلة !.. **ولكن ما قيمة انكاره اذا كانت «اسكيا» تؤكد انها رأته بعينيها ؟! .. بل لقد آمنت «اسكيا» من دفاعه بأنه كان بريئا ، ولكنها لم تجد سبيلا الى التراجع ..** وعندما سمعت صرخاته بعد ذلك ، وهو يتلقى عقابه ضربا بالسياط ـ قبل أن يقصى عن العشيرة ـ تمنت لو أن السوط كان يهوى على بدنها هى ، ولكن .. كيف تنقذه ، وهو الذى

قد يكون رآها حين تسللت خارج الدار فى جنح الليل ؟.. انها باقصائه عن العشيرة تغدو بمأمن ، ولكن .. اذا لم يكن هو الذى ترك القلادة ، فلابد أن رجلا غيره ولج مخدع ابنتيها ، فمن تراه ؟

— ١٤ —

• **خمس** ليال قضاها « بوثيا » فى الدار المقابلة لدار لوط ، على أمل أن يرى « اسكيا » ، ولكن هذه ظلت مع زوجها فى الحقول.. وكان يعود الى المعبد ـ مع كل فجر ـ وهومكدود، قانط !.. وازعجه أنه لم يستطع أن يفقه تماما ما بدأ ينتابه من مشاعر .. لقد خبر من قبل مايتملك الرجل اذا ما اشتهى امرأة بالذات ، ولكنه ككاهن أعلى لم يكن بحاجة الى أن يعانى، فقد كان يكفيه أن يعرب عن رغبته لكى تستجاب !.. **أما نحو « اسكيا » فان الحنين والشوق اللذين استوليا عليه كانا عجيبين ، لا عهد له بهما !.. كانا غير مألوفين ، بقدر ماكانت « اسكيا » على غير غرار نساء (سدوم) و (عمورة)** . وبات تواقا الى أن يعرف المزيد عن « اسكيا » ، فكان يتحايل لكى يعرب عن هذه الرغبة لعبار ، دون أن يستثير شكوك التاجر الماكر !

ولم تفطن « ديبون » الى ما أصاب الكاهن الاعلى ، اذ كانت مغرقة فى ارتشاف اللذة بين احضان « سوسيم » . وكان هذا الهوى كفيلا بأن يوقظ لدى كل منهما طموحا متوثبا جريئا . وأخذ كل منهما يسعى الى مأربه فى حذر . ففى ذات ليلة قال سوسيم لديبون : « اننى لا أكاد أصدق أن أحظى من

الكاهنة العليا بكل هذا الحب، وهى التى تملك ان تختار من تشاء من رجال الوادى ، والتى تستأثر بحب الكاهن الاعلى ! » . فتبدى الاستياء على ديبون ، وقالت : « **تعنى بوثيا ؟!.. اننى أحس أحيانا بأن كلا منا قد ابتعد كثيرا عن صاحبه . ان ضعفه ازاء استقرار لوط فى الوادى ، لا يغتفر . كأنى بالكاهن الاعلى لعشيرات خائف من مجرد بدوى من رجال العشائر !..** ان لوطا يشق طريقه الى فرض نفوذه على الوادى بما لديه من ذهب وفضة . لقد ابتاع اراضى ، وعبيدا .. ولو استمر على هذه الحال ، لصار لديه جيش قوى من الاتباع ، يستطيع أن يحارب به قومنا ! »

ولمح « سوسيم » الاريب ما وراء كلماتها ، فتشجع على السعى لمأربه هو الآخر ، فقال : « ان أهل سدوم وعمورة يشعرون بغرابة لوط ، وبغرابة وضعه . واسوف اتحدث اليهم عما فى توطد نفوذه من تحد لنفوذ عشيرات ! » . فقبلته ، وهى تقول : « ان شيئا ما يشغل بال بوثيا فى الفترة الاخيرة ، وقد أصبح يهمل واجباته المقدسة ، مما أزعج كهنة المعبد ، وحدا بموام الى أن يلجأ الى أكثر من مرة .. ولست أدرى الى متى يستطيع بوثيا أن يظل حاكما للوادى ! » .. **وتطلع اليها سوسيم فى دهشة وجزع ، فضحكت قائلة : « ان عشيرات انثى ، فلماذا لا تحكم الوادى باسمها انثى ؟ »**

وكشفت بهذا عن مأربها ، فقال سوسيم فى دهاء : « ولكن المعبد والشعب لن يقبلا أن تحكمى بدون كاهن أعلى ! » . ففكرت برهة ، ثم تمتمت هامسة : « ستكون انت كاهنى

الاعلى .. وسننتقم معا لعشيرات من رب لوط الذى لا تراه عين ! »

وهكذا شرعا يفكران فى خطة تمكنهما من التخلص من «بوثيا» !

وبعد ظهر اليوم التالى ، ساقت المصادفات لسوسيم مفتاح الخطة . فلقد زاره « كاريدا » – ولم يكونا قد التقيا منذ أيام عديدة – فأخذ يروى له مغامرته الجريئة فى بيت لوط . وراح سوسيم يصغى بانتباه ، ثم ازداد اصغاء عندما اختتم كاريدا قصته قائلا : « ولقد كاد أمرى ينكشف .. ففيما كنت أغادر الدار ، فوجئت بزوجة لوط عائدة من الخارج ! » . فقال سوسيم : « لقد كان الوقت متأخرا ، فكيف كانت خارج الدار وحدها ؟ » .

– لم تكن وحدها ، فقد أبصرت رجلا .. وكان من أهل سدوم !

وعبس سوسيم ، وقد اشتد اهتمامه ، وقال : « سدومى .. مع امرأة لوط ؟ » .. وعجب كاريدا من هذا الاهتمام ، فبدأ ينتقى كلماته قائلا : « الحق اننى لم أرهما معا ، وانما رأيته يغادر الدار المقابلة – عندما خرجت هى – ويتبعها عن كثب .. وعندما عادت ، وبارحت أنا الدار ، رأيته يسير أمامى ، فأوحى لى هذا بأنهما كانا معا ! » . وتمالك سوسيم نفسه بجهد ، وهو يستدرج كاريدا بأسئلته ، فيعرف منه أن الرجل سار الى المعبد ، وأن الشاب اشتبه فى أنه كان .. الكاهن الاعلى ! .. واضطجع سوسيم فى مجلسه ، وهو موزع بين الدهشة والطرب .. لقد كان هذا يفسر التطور الذى طرأ على « بوثيا » فى الفترة الاخيرة ! .. وياله من سلاح طيب !

ان اتصال بوثيا بامرأة لوط يرقى الى درجة الخيانة لعشيرات !

— ١٥ —

• **عاد** لوط الى داره قبيـل الغروب ، فجلس الى جوار البركة — فى الحديقة — وجلست اسكيا وابنتاهما على مسافة منه ، بينما انهمك « جارو » فى اعداد نار يسمرون حولها .. وفيما هم كذلك ، أقبل الحارس يعلن مقدم عبار ، فعبس لوط ، وألقى نظرة على نسائه ، ثم أشفق أن يصرفهن ، وعول على أن لا يطيل بقاء التاجر ، فأمر باستدعائه ..

واغتبط عبار اذ لمح النسوة وهو يجتاز الحديقة ، فقد كان وجودهن مادة لنبأ يرتاح اليه الكاهن الاعلى ، الذى كان دائم السؤال عنهن .. وبوغت لوط — كما ارتجفت اسكيا وابنتاها — اذ رأوا خلف التاجر ابنه سوسيم ، وصديقه كاريدا !.. وأقبل التاجر ينحنى أمام لوط فى مداهنة ، قائلا : **« آمل أن تغتفر لى أن عكرت صفو جلسة عائلية يا لوط النبيل .. واسمح لى أن أقدم لك ابنى وصديقه ، فقد كانا تواقين الى أن يحظيا بشرف مقابلتك منذ زمن ! »** . وجلس عبار على مقربة من لوط ، بينما انتحى الشابان جانبا غير بعيد من النسوة ، وراحا يسترقان النظرات نحوهن . وما لبث لوط أن انهمك مع عبار فى الجدل بشأن بعض صفقاتهما . فلم يفطنا الى « كاريدا » حين وقف واقترب من النار ، وكأنه يصلح من شأنها ، **ثم مال نحو آبومى ، وهمس : « ماذا فعلت بالقلادة ؟ » .. وأسرع عائدا الى مجلسه ، دون أن ينتظر جوابا .**

وبهتت « آبومى » وتبدى عليها جزع لمحته عين «سوسيم» ، فابتسم فى خبث . وسمعت « اسكيا » الهمسة فارتبكت ، وسرحت بصرها نحو التل الملتف بالظلام ، وساءلت نفسها : اذن ، فهو كاريدا ؟ وماذا تراه يعرف عن مغامراتها ؟.. وحمدت لله ان لوطا لم يفطن الى ما حدث ، وان عينيه لم تريا حركة الشاب .

ولكن عينين اخريين كانتا ترقبان كل شىء من فوق التل .. عينا « قارون » ، طريد العشيرة ، الذى جلس ساعات طويلة يرقب ما كان يدور فى دار لوط ، وقلبه مفعم بالحقد !.. وما كان ضرب السياط أكثر ألما لقارون من شعوره بأن لوطا أبى أن ينصفه ، ورفض أن ينصت لدفاعه ، وأصدر عليه ظلما ذلك الحكم الذى آذاه فى جسده ، وآذاه فى كرامته وسمعته أمام العشيرة كلها !.. **لقد اعتاد قارون أن ينصت الى لوط كلما تحدث الى العشيرة عن ربه ، فيزداد حبا لذلك الرب ، وللوط .. ولكم سمع ان هذا الرب عادل ، كريم ، رحيم .. فلماذا اذن لم ينعم هو بالعدالة ، ولا بالرحمة ؟!**

وكان حين تمالك نفسه ــ بعد السياط ــ قد هام على وجهه فى التلال ، يجر جسده المثخن بالجراح ، المثقل بقلب ملأه الغضب ، والحقد ، والكراهية .. ثم لم يلبث أن وقع ، فلم يعد يحس بشىء حوله .. حتى اذا أفاق من غشيته ، استولت عليه حمى قاسية ، اسلمته الى بحران وأحلام مزعجة !

وعندما أفاق ، وجد امرأة تحنو عليه ، وتدلك ظهره بأصابع رقيقة مغموسة فى الزيت . وهتفت به فى رفق ، اذ فطنت الى

أنه استعاد وعيه : « لا تتحرك !.. اسوف تعنى بك « ثيما » وتمرضك !.. لقد وجدتك خارج الاسوار ليلة أمس ، فما الذي أصابك ؟.. ومن الذى ضربك ؟.. أمن رجال لوط أنت ؟ » . فأومأ برأسه .

.. وأحس بشفتيها تطبقان على شفتيه ، وبجسمها يلتصق بجسمه .. وحاول أن يبتعد ، ولكن آلام ظهره شلت حراكه .. وأحس بيدى «ثيما» تتلمسان جسمه ، ولكن النعاس غلبه .. حتى اذا استيقظ ثانية ، وجدها تغسل جسمه بماء فاتر . وسألها : « اين ثيابى ؟ » . فأجابت : « لقد كانت مهلهلة ، وسأرسل فى احضار ثياب جديدة لك » . ولم تحاول أن تلح عليه بالسؤال ، حين تبينت انه يأبى أن يروى ما حدث له ، ولكنها قالت له : « بوسعك أن تبقى هنا اذا شئت .. انك أول رجل أجده بقربى منذ احدى عشرة سنة »

ـ لست فى حالى الراهنة سوى حطام رجل !

ـ بل انك لرائع ، فابق معى .. اننى واسعة الثراء ، وأريدك لنفسى ، وقد لا أكون جميلة ، ولكننى كنت يوما خلابة الفتنة . بيد أن روائى خبا منذ أحد عشر عاما ، فلم يعد يولينى الحب أى رجل ! .. اننى لا أحب الاشفاق ، فاعتبرها صفقة !

ولم يأب الصفقة ، فقد كان هو الرابح .. كان قد صمم على أن لا يعود لقومه ، كما كان بحاجة الى مأوى ، والى قوت ريثما يبت فى أمر نفسه ! .. وفى تلك الليلة ، جلس « قارون » مع « ثيما » ، فى حديقة دارها يتسامران . وفجأة سألها : « أين منزل لوط من هنا ؟ » . فسألته فى جزع : « لماذا ؟ » ..

واضطر الى أن يروى لها قصته ، ليبرر رغبته فى أن يراقب دار ظالمه !

ومنذ تلك الليلة بدأ يراقب الدار !

— ١٦ —

• **أخذت** مشروعات « لوط » تتسع مع الايام ، حتى قوى لديه الامل فى أن يبسط سلطانه على الوادى ، لا سيما وأنه لم يلق من السدوميين ما يوحى بأى اعتراض على استقراره وقومه فى الوادى ، كما ان ما بدا منهم من اهتمام به — أكثر مما كان ينبغى — لم يلبث أن خبا على مر الايام . وأخذ اطمئنان لوط الى أهل المدينة يزداد ، حتى انه لم يلبث أن استغنى نهائيا عن اقامة حارس على داره .

وفى تلك الاثناء ، كان «بوثيا» يزداد تدلها فى حب «اسكيا» ، ويحاول عبثا أن يراها .. ولم يكن يدرك سر شوقه اليها ، ولكنه كان يعرف انها تختلف عن كل النساء الاخريات .. ولو أنه أدرك أن « اسكيا » كانت تفكر فيه ، لاغتبط . ولو انها كانت لا تفتأ تلوم نفسها على تلك اللحظات القصار التى كانت بينهما . واذكت أكذوبتها — التى لقى قارون بسببها ما لقى — النيران التى راح ضميرها يكويها بها . ثم زاد من عذابها ما اكتشفته من أن « كاريدا » كان صاحب القلادة ، فقد أصبحت تخشى أن يكون قد رآها مع ذلك السدومى الغريب ، فى الليلة المشئومة !.. وكانت الابتسامة التى لمحتها على شفتى سوسيم — حين همس كاريدا لآبومى بسر القلادة — تثير ذعرا غريبا فى نفسها !

وكانت فى المدينة امرأتان أخريان تعانيان آلاما مغايرة لآلامها، وإن كانت ذات علاقة بها .. وكانت « ثيما » احداهما ، فقد أزعجها ان كان قارون يتسلل كل ليلة ليرقب دار لوط . وعصفت بها الغيرة والخوف من أن تفقده ، ولكن قارون لم يلبث أن طمأنها ، وقد بدأت تتبلور فى ذهنه فكرة : **لقد كان لوط يحذر قومه من الاتصال بالسدوميين ، وها هو ذا قارون قد رآه يستقبل « عبار » والشابين فى داره ، ويجلسهم مع نسوته !..** وكانت عيناه قد لمحتا « كاريدا » حين مال نحو « آبرمى » يسر اليها بأمر القلادة ، فأخذ يرثى لاهل العشيرة الذين يحرم عليهم لوط ما أحله لنفسه ! .. وعلى ضوء هذه الفكرة ، راح يفكر فى انتقامه .

أما المرأة الثانية ، فكانت « ديبون » . اذ أن « سوسيم » لم يكد يوحى اليها بأن « بوثيا » كان يتسلل للقاء « اسكيا » كل ليلة — كما زعم — حتى اتقدت فى صدرها نار الحقد .. وعندما أرادت أن تستوثق من الامر ، زعم « سوسيم » ان صديقه « كاريدا » كان عشيقا لاحدى ابنتى لوط ، وانه قد روى له كيف لمح « بوثيا » يقبل « اسكيا » ، أثناء تسلله من دار لوط ذات ليلة ، بعد لقاء مع حبيبته ! .. **ولمعت عينا ديبون بمزيج من الخوف ، والانتصار ، وقالت : « ترى ماذا يقول السدوميون اذا عرفوا أن كاهنهم الاعلى يلتقى بامرأة لوط ؟ .. أن من الغدر لعشيرات أن يسلم نفسه لامرأة كافرة ! »**

وقال الشاب الخبيث : « ولكن الكاهن الاعلى هو الذى يسن القوانين » . فصاحت فى حنق : « الناس .. أما القوانين الخاصة بالكهنة ، فمن لدن عشيرات . لسوف يدفع بوثيا

ثمن غوايته !.. يجب أن يوجه كاريدا الاتهام اليه علانية ، فى ساحة المعبد ! » .. وارتجف سوسيم وهو يقترب من دوامة المؤامرة الكبرى . وبدا لحظة أنه أوشك أن يضعف ، ولكن ديبون بادرت تمنيه قائلة : « **ان بوثيا لم ينجب منى ابنا يكون له حق وراثة منصبه ، ومن ثم فسيخلو عرش المعبد .. وفى وسعى أن أسوق الكهنة الى اختيار من أرى اختياره ليشاركنى الحكم ! »**

وامعانا فى أحكام الخطة ، كان لابد من اثارة قوم لوط على زعيمهم ، حتى لا ينتهز فرصة انتقاض السدوميين على كاهنهم الاعلى فيغزو المدينة ، أو يشترى أهلها ، أو — على الاقل — يهدد « ديبون » و « سوسيم » باستفحال نفوذه . وكان نبأ الراعى الذى طرد من العشيرة ولاذ بدار « ثيما » قد شاع فى المدينة كلها . وما كان من العسير الوصول الى مأوى « قارون » ، ولا الوصول الى قلبه الملىء بالحقد والرغبة فى الثأر .. وكانت الطريق ممهدة لاقناع « قارون » بأن الكاهن الاعلى كان على اتصال بامرأة لوط ، وان امره لن يلبث أن يعرض على السدوميين ، فتكون فضيحة كبرى .. **وان قوم لوط خليقون بأن يفقدوا ثقتهم فيه اذا ما عرفوا ان داره مفتوحة للسدوميين ، وهو الذى حرم عليهم مخالطتهم ، زاعما ان فى ذلك اغضابا لرب ابراهيم !**

وقالت ديبون لقارون : « اذهب لقومك وحدثهم بكل هذا ، و صف لهم ما يعيش فيه لوط من نعيم بينما يشقون هم فى الحقول ، فهو يسخرهم لترفه .. قل لهم ان من الحسارة ان يريقوا دماءهم اذا انتهز فرصة اضطراب المدينة وامرهم بالقتال

.. وتذكر ان فى انتظارك منصبا رفيعا فى حاشيتى ! »

ولم يكن « عبار » غافلا ـ فى تلك الاثناء ـ عما كان يجرى حوله .. وراح يزن الامور فى فكره ، فقد كان يحرص دائما على أن يكون هو الرابح فى كل مناسبة . واذا كان مصير « بوثيا » قد أصبح محتوما ، فان الضجة التى ستقضى عليه ، ستعصف بامرأة لوط وباحدى ابنتيه ، ولكن .. ماذا عن لوط نفسه ؟ لو انه استطاع ـ خلال الاضطرابات التى ستدب فى المدينة ـ ان يستولى عليها ، لضمن « عبار » لنفسه مكانة سامية لديه ، ولازدهرت تجارته ، ولتخلص من الضرائب التى كان يدفعها للمعبد .. ومن ثم فانه سعى الى لوط يساومه ، ويعده بأن يشترى ذمم الكثيرين من السدوميين ليقاتلوا فى صفه .. وأدرك لوط ما كان يطمع فيه « عبار » من مآرب ، ولكن .. ألم يكن المشروع كفيلا بأن يحقق له ما كان يحلم به من أن يكون الوادى له ولقومه !

***

وحان اليوم المرتقب .. يوم عيد عشيرات ، بداية الربيع ايذانا بموعد البذر والاخصاب ، فأخذ أهل المدينة يتقاطرون ـ منذ العصر ـ على ساحة المعبد ، ارتقابا لبزوغ القمر ، ليبدأوا احتفالاتهم الصاخبة التى تتسم بالاباحة المطلقة ، وباطلاق العنان للشهوات ، على مرأى من تمثال ربتهم .

وكان « ديبون » و « سوسيم » قد اطلقا ـ فى تلك الاثناء ـ شائعات انسكبت فى آذان السدوميين فسممت نفوسهم : لقد كانت عشيرات غاضبة لان لوطا الغريب قد استخف بها ، وجاء

يفرض سلطانه على الوادى، فآن لها أن تصب نقمتها عليه وعلى ربه !.. **وفعلت الاقاويل فعل السحر ، لا سيما فى ذلك اليوم ، وقد أخذت الخمر تلعب بالعقول ، فاذا الحنق يتحول الى هياج ، واذا النفوس تتحرق للثأر لعشيرات ، ترتقب أول بادرة !**

ولكن مصير الوادى كان قد تقرر بعيدا عن المدينة الآثمة ، فى خيمة « ابراهيم » ، فى بادية (حبرون) . اذ قال الرب : « ان صراخ سدوم وعمورة قد كثر ، وخطيتهم قد عظمت جدا » ، فحقت على أهل الوادى النقمة . ولكن ابراهيم أشفق على ابن أخيه لوط ، فقال : « أفتهلك البار مع الاثيم؟.. عسى أن يكون خمسون بارا فى المدينة ، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارا الذين فيه .. حاشا لك ! » . ووعد الرب بأن يصفح عن المدينة اذا وجد فيها خمسين صالحا . فعاد ابراهيم يشفع ، وانقص العدد الى اربعين ، ثم الى ثلاثين ، ثم الى عشرين ، ثم الى عشرة .. **ووعد الرب بأن يبقى على المدينة اذا وجد فيها عشرة من الصالحين . ولكن الرب كان يعلم ان ليس فى سدوم وعمورة عشرة من الصالحين !**

* * *

وهبط المساء الموعود ، فضاقت ساحة المعبد على رحبها .. واستقر « بوثيا » على عرشه . ثم دقت الطبول ، فصمت القوم ، وبرزت «ديبون» عارية ، وقد بسطت ذراعيها فالتفت حولهما حية كبيرة .. وراحت الكاهنة الفاتنة ترقص فى عنف ، حتى سرى دفء جسدها الى الحية ، فراحت هذه

تسعى حتى التفت حول عنقها ، ورفعت رأسها وكأنها توشك أن تلدغها .. وصاحت الجماهير ، فاذا « ديبون » تشد الحية بحركة قوية مباغتة ، فترفعها عاليا ، وتلوح بها فى الفضاء ، ثم تطوح بها فتهوى على الارض ميتة !.. **وارتفع هدير القوم ، فوقفت ديبون مبتسمة ، كأنها ربة ، ثم سعت الى عرش بوثيا فجثت أمامه ، وعادت تستوى على قدميها ، وتسير الى عرشها ..**

ورقصت عذراوان اخريان ، قدمتا بعد ذلك طعاما للنار السرمدية ، تقربا الى عشيرات !.. ودار عبيد المعبد بدنان الخمر على القوم ، فذكت نيران الوحشية فى الاجسام .. وفى غمرة الصخب ، تسلل سوسيم وكاريدا الى دار لوط ، وقد أسرا فى نفسيهما أمرا . فقد أدركا أن القوم قد اعتزموا ان يغيروا على دار لوط ، انتقاما لعشيرات ، فأسرعا لينقذا آبومى ونعمة ، وليتوجا ملاذ العيد بالعذراوين الجميلتين !.. ولكن سوسيم لم يستطع أن يشق لنفسه طريقا وسط القوم الذين استبد بهم الخبال . أما كاريدا ، فقد استطاع أن يصل الى دار لوط ، وأن ينتزع « آبومى » من مضجعها ، ويسرع بها الى المعبد .. ونعمة تتبعهما !

واشتد صخب القوم ، حتى أيقظ «اسكيا» فى بهيم الليل .. وأحست بيد سوداء تقبض على قلبها ، فهبت من مضجعها ، وأسرعت الى غرفة ابنتيها ، فلم تجدهما .. ولمع فى راسها خاطر ، فلما اطمأنت الى أن زوجها كان نائما ، هرعت الى المعبد كالمجنونة . **ولمحها « بوثيا » فلم يصدق عينيه ، ثم نسى انه الكاهن الاعلى ، فخف اليها . ولم تعرفه « اسكيا » ،**

فلما أحاط خصرها بذراعيه ليحميها من القوم ، هتفت فى خوف : « اريد ابنتى ! » . وجذبها الى السرداب الخفى لتكون بمأمن ، ثم قال : « سأبحث لك عنهما ! » . ولكنه لم يتمالك نفسه ، فضمها اليه — قبل أن يغادرها — وطبع على خدها قبلة .. بينما دفعته عنها قائلة : « اسرع بالبحث عن ابنتى ! »

وخيل اليها أن دهراً قد انقضى قبل أن يعود اليها بالفتاتين وقد شحب وجهاهما ، واستبد بهما الجزع ، فأسرعت بهما الى الدار .. ووجدن لوطا لدى الباب ، فصاح فى غضب هادر : « أين كنتن ؟ » . ولذن بالصمت ، فاشتد به الغضب ، لولا أن تقدم جارو — من طيات الظلام — وقال : « لقد كن يتمشين يا مولاى ، وكنت فى حراستهن ، فلا تخش بأسا ! » . وتردد لوط برهة ، ثم قال : « اذهبن اذن الى مضاجعكن ، ولنا حديث فى الغد ! »

— ١٧ —

• **اعترى** بيت لوط — بعد الاحتفالات — تغير لم يفطن هو اليه ، رغم انه كان جوهريا ، عنيفا .. فلقد ظلت قبلة « بوثيا » تلهب خد « اسكيا » .. وأدركت أنها لقيت — أخيراً — الرجل الذى يرضى أحلامها ، فنوزعتها الحيرة ، والجزع ، والقلق ، وغشيها من هذه الحال عذاب أليم .. **وكمسحورة لا تملك من أمر نفسها شيئا ، أخذت تتسلل — فى كل ليلة — الى الدار المقابلة ، لتلتقى ببوثيا ، فيروحان يتحدثان عن أمرهما .. لقد أدرك كل منهما أنه كان يحب الآخر ، ولكن العقبات التى كانت تكتنفهما ملأت نفسيهما باليأس والقنوط .**

شخص واحد أدرك ما كان يخيم على سماء البيت من غيوم ، فلم يكف عن التوسل الى لوط بأن يقود أسرته وقومه بعيدا عن المدينة الآثمة .. ذلك هو « جارو » الامين . حتى اذا ضاق لوط بالحاحه ، صاح فيه : « أنا الذى أقرر ما اذا كنا نرحل أو نبقى ! » .. وكان يرتقب الفرصة التى مناه بها « عبار » . فقد أخذت الاحداث تتطور منذرة بحرب ، فحرص لوط على أن يعفى رجال القتال من قومه من كل عمل ، لينصرفوا الى المران .. وما درى أن قارون كان ينفث فيهم سمومه ، ويوسوس لهم : « كم منكم سيلقون فى الحرب حتفهم ؟.. ولمصلحة من ؟.. لكى يزداد لوط سلطانا وثروة ، فيغرق فى الترف .. انه منذ الآن يستعبدكم فى الحقول ، بينما يعيش فى داره مرفها ! »

ولم تلبث سموم قارون أن سرت فى القوم ، فرأوا ان لوطا قد حاد عن تعاليم ابراهيم ، وخشى شيوخهم الفتنة فأوفدوا رسولا الى ابراهيم .. وبدأ الشباب يتسللون الى المدينة شيئا فشيئا ، ويندمجون فى أهلها .

واشتد الصراع الخفى بين « بوثيا » و « ديبون » ، حتى بلغ ذروته ، ثم وقع الانفجار أخيرا .. فبتحريض من سوسيم ، **وقف كاريدا فى ساحة المعبد يتهم الكاهن الاعلى بخيانة عشيرات ، واسلام جسده لامرأة لوط ! .. وأسرع الكهنة — الذين استمالتهم ديبون — الى الالتفاف حولها . واعتقل بوثيا فى حجرته ، ريثما يجتمع الكهنة فينظرون فى الامر .** وانقسم أهل المدينة الى فريقين : فريق أبى أن يصدق الامر ، فراح يدافع عن بوثيا ، وفريق انحاز الى ديبون . ولكن

الفريقين أجمعا على ان لوطا هو سر ما حاق بالوادى من بلاء !

وكان لوط واسكيا فى الحقول ، فى ذلك اليوم ، فهرع اليهما « عبار » بالانباء .. وتحول لوط الى زوجته يسألها فى غضب عما قيل عنها .. واستبد بها الخوف فشل تفكيرها ، ولم تعد تدرك سوى أمر واحد ، ذلك هو أن القوم لن يلبثوا أن يغيروا على دار لوط ، فصرخت : « ابنتـــاى ! » .. وهتف عبار : « لا تضيع الوقت يالوط ، ارسل محاربيك الى المدينة ! » .. وعادت اسكيا تصرخ : « ابنتاك يا لوط .. انهما وحيدتان فى الدار ! » . **وهتف لوط محزونا ، محسورا : « أواه يا اسكيا ، يا أم ابنتى .. لو صح ما تقوله المدينة عن ذنبك ، فلن اغفر لك .. ولن يملك أن يغفر لك سوى رب ابراهيم ! » . فجثت على ركبتيها ، وتشبثت بأهداب ثوبه ، وهى تضرع باكية : « انقذ آبومى ونعمة ! »**

وصاح لوط يستدعى محاربيه ، ولكن أحدا لم يستجب اليه .. واستشاط غضبا فصرخ فى شيوخ العشيرة ، ولـكن كبيرهم هتف به : « هل ترى أن بسط سلطانك على هـذا الوادى يستحق اراقة دماء قومك يا لوط ؟.. لقد بدلك هذا الوادى ، فخرقت شريعة قومك ، فلم يعد لك فى الطاعة حق ! » .. ووجم لوط . وود لو يتكلم ، ولكن الاخطاء التى انزلق اليها قفزت تباعا أمام بصره .. وتلفت حوله ، فألفى نفسـه وحيدا ، وبكاء زوجته يتصاعد الى أذنيه ، وضراعاتها لا تكف : « ابنتاك يا لوط ، اتتركهما للسدوميين ؟.. لسوف اذهب

اليهما ، فهلا رافقتني لتنقذهما ؟ »

* * *

وسلكا أقصر طريق الى الدار ـ خلال دغل ومنطقة صخرية يتبعهما « جارو » ، فتسلقوا السور الخلفي ، وهبطوا في الحديقة .. وهرعت اسكيا كالمجنونة ، فلم تجد سوى «نعمة» ، **أما « آبومى » فقد أخذها السدوميون . وصرخت اسكيا .. وجمد لوط في مكانه .. لقد أصبح عميد العشيرة ورأسها وحيدا ، لا حول له ولا قوة ، فماذا يفعل ؟**

واتجهت عيناه الى السماء ، وتحركت شفتاه : « لقدأذنبت يا الهي !.. كانت روحي معك ، ولكن عقلي ويدي غررت بي ، فما كان ما ابتغيت سوى متاع الدنيا ، فاغفر لي يا رب ابراهيم ! » .. وانبعثت الكلمات في حرارة صادقة ، شعرت معها اسكيا ـ لاول مرة مذ وفدوا على سدوم ـ ان الله كان قريبا ، فشرعت هي الاخرى تصلي ، وصرخة الام تتخلل دعواتها .. وفجأة ، تغيرت نغمة الصخب الذي كان خارج الاسوار ، وتصاعدت صيحات : « **أيها الجميلان ، تعاليا معنا !** .. ما أجملهما !.. ان شعرهما في لون الذهب ! » .. **وانفتحت أبواب دار لوط من تلقاء ذاتها ، فدلف منها رجلان لهما شعر من ذهب ، وبشرة بلون السحب الصافية ، وعيون كنجوم الفجر ، ومهابة تلقى الروع في القلوب ..** وتقدما في خطى وقورة ، فقال أحدهما : « جئنا ننذرك يا لوط .. ان الرب غاضب على الوادي ، ولن يلبث أن ينزل به نقمته ! »

ومن الطريق صاح القوم : « اعطنا الرجلين يالوط !.. اسلمهما الينا نرد اليك ابنتيك !.. هاتهما نمكنك من الوادى !» . وصاح لوط غاضبا : « انما هما ملاكان موفدان من ربى ! » . وتدافع الناس على الباب فبرز اليهم ، وصاح فيهم : « اليكم ابنتى فافعلوا بهما ما يروق لكم ، ولكن لا تمسوا رسولى ربى ! » . ولم يدر انه بتصرفه هذا قد أرضى ربه . أما الملاكان فقد ادركا أن الرب قد أشفق عليه . وقال له أحدهما : « خذ أهلك واخرج من هذا الوادى ، فسوف نهلكه وأهله ! » . وهتف لوط جزعا : « لا ، لقد وعدنى الله بهذا الوادى ! » . فأجاب الملاك الآخر : « ان الله لم يعدك بشىء من هذا ، وها هو ذا الليل يهبط على سدوم ، ولن يقدر لها أن ترى النهار !»

وظلت نزعة من اغراء الارض تراود لوطا ، فعرض على الملاكين كل ما كان يملك من ذهب ، يضحى به قربانا فى سبيل الابقاء على الوادى ، فصاحا فى صوت كالرعد : « لا تأثم . ان الذهب لا يلين قلب الرب ، وانما يلينه شىء واحد : ازجاء الحب له ، والحب للناس ! » . وأخرجاه وأهله الى ما وراء أسوار المدينة . ثم لمع داخل الاسوار ضوء أعشى العيون ، فتصاعدت أصوات القوم : « لست أرى ! » .. « لقد عميت ! » .. « ما هذا الظلام ؟ أين نحن ؟ » .

وهبطت نقمة الله .. وتدافع السدوميون ، يدوس بعضهم بعضا ، ويتقاتلون فيما بينهم ، كل ينشد الفرار .. واشتدت حرارة الجو ، ودبت ألسنة اللهب فى كل مكان ، واحمر وجه السماء والارض على السواء .. وأسرعت ديبون الى غرفة

بوثيا ، وقد تبينت انها ـ برغم كل ماحدث ـ انما كانت تحبه .. وهتفت به : « بوثيا ، أن الفرصة لم تفت بعد .. ارنى انك مازلت تحبنى ! » . فأجابها فى اقتضاب : « لم أعد أحبك ! » . وانقضت عليه بغتة ، وقد انتضت خنجرا ، فقفز من مكانه ، وهجم فأطبق براحتيه على رقبتها ، وراح يضغط فى غيظ جنونى .. وأقبل سوسيم فى تلك الاثناء ، فانقض عليه من خلف ، وشد رأسه الى الوراء .. وهوت ديبون الى الارض ، وتدحرج الخنجر ، فانحنى عليه سوسيم ، وهو لايزال مطبقا على بوثيا ، وغيب الخنجر فى صدر الكاهن !

واعتدل سوسيم ، وظل برهة يجاهد ليلتقط أنفاسه .. ثم التفت نحو ديبون ، واذا بها قد زحفت الى جثة بوثيا ، فارتمت عليها وهى تصرخ : « ما احببت سواك يا بوثيا ، فاغفر لى ! » .. وفطن سوسيم فجأة الى ما كان يجرى فى المدينة ، فأسرع يغادر المكان .. وظلت ديبون فى حزنها برهة ، ثم رفعت رأسها فاذا كل ما حولها أحمر ، تشقه ومضات من برق خاطف . واذا تمثال عشيرات ينهار ترابا .. ولم تر شيئا بعد ذلك ، فقد لفها ظلام دامس !.. واهتزت الارض بعنف ، فاذا أعمدة المعبد تترنح !.. واسرعت ديبون تتخبط ، متلمسة طريقها الى الساحة ، وهى تنادى الكهنة .. وكان هؤلاء أمام النار السرمدية ، وقد أمسكوا آبومى ـ ابنة لوط ـ يهمون بأن يقدموها قربانا ، فلم يعقهم سوى أن أظلمت أبصارهم ، فلم يعودوا يرون شيئا ..

شخص واحد ، شاء الرب أن يبقى له بصره .. ذلك هو

« كاريدا » ، الذى اندفع الى ساحة المعبد — فى تلك اللحظة — وهو يبحث عن آبومى .. وألم بالموقف بنظرة خاطفة . ورأى ديبون وهى تتخبط ، وتنادى الكهنة ، فأسرع وأمسك بيدها ، ودفعبها الى الكهنة الذين حسبوها ابنة لوط وهم لايبصرون ، فطرحوا بها الى النار ، غير حافلين بصرخاتها .. بينما أسرع كاريدا **فضم اليه آبومى ، وراح يجرى بها نحو أسوار المدينة ، وأعمدة المعبد تتهاوى ، وبنيانه ينهار ، والخراب يعم المدينة السابحة فى اللهب !**

واذ أصبحا خارج الاسوار ، هتفت آبومى وقد استبد بها الاعياء : « اين امى ، وأبى ، واختى ؟ » . فقال كاريدا : « لابد ان عشيرات قد عاقبتهم هم الآخرين ! » . ودفع الى يدها بقلادة تنتهى بتمثال صغير ذهبى لربته ، وهو يقول : « منذ الآن ستكون عشيرات ربتك ، فامسكى هذه لتحميك ! » . ولكنها ردت يده فى عنف ، اذ كان حب رب ابراهيم متغلغلا فى فؤادها . وفى تلك اللحظة ، أومض برق خاطف ، ودوى رعد قاصف ، واذا التمثال ينصهر فى يد كاريدا ، فيتصاعد منه لهب يحرق جسد الشاب . وغطت آبومى عينيها ، وصاحت : « رباه ! » .. وفى تلك اللحظة هبطت على كتفها يد رفيقة ، وسمعت صوت أبيها يقول : « الحمد لله ان انقذك يا ابنتى ! »

* * *

وسار لوط بأهله نحو التلال ، وشرعوا يتسلقونها ، دون أن يجسروا على النظر خلفهم ، فقد ظلت تتردد فى آذانهم

كلمات الملاك للوط : « لا تنظر الى ورائك ، ولا تقف فى كل دائرة .. اهرب الى الجبل لئلا تهلك ! »

وبلغوا قمة الجبل ، فهتف لوط : « يارب ابراهيم .. لقد أخذت منى كل شىء : قومى ، وأرضى ، وماشيتى . لقد عاقبتنى اذ حدث عن أوامرك . . لقد اذنبت ، فاغفر لى ! » .. وامعن فى السير ، ممسكا بيدى ابنتيه ، وجارو يتقدمهم يستطلع الطريق ، **واسكيا فى اثرهم ، لا تقوى على نسيان ما حدث ، وفى أذنيها نداء يتردد .. نداء بوثيا : « اسكيا ! اسكيا ! »** . **ولم تقو – اذ أوشكت أن تبلغ قمة الجبل – على مقاومة النداء ، فالتفتت خلفها** .. ورأت كل شىء خرابا ، يبابا !.. وانقضت عليها – فى اللحظة ذاتها – سحابة من السماء ، فأمطرتها حمما كستها ، فلم تعد تشعر بشىء ..

وما لبثت حرارة الجو أن لطفت ، وتبددت السحب ، وصفت السماء ، وتألق ضوء النهار .. وشعر لوط بأن امرأته لم تعد معه ، فالتفت خلفه – اذ ذاك فقط – فاذا بها عمود صلب !

وظل الدرس – درس الرب – يتردد خلال الاجيال :

« لا تجدف باسم الله ، فان الله محبة ، وحق » !